الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحي –جيجل
كلية الآداب واللغات الأجنبية
قسم اللغة والأدب العربي

## عنوان المذكرة

# وصف الطبيعة بين "البحتري وابن خفاجة"
# –دراسة مقارنة–

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:
- ✓ مليكة طبعان
- ✓ نسرين بن عزيزة

إشراف الأستاذ:
- عبد المالك بوتيوتة

| | | |
|---|---|---|
| 1- د/ عبد العزيز شويط | جامعة جيجل | رئيسا |
| 2- الأستاذ: عبد المالك بوتيوتة | جامعة جيجل | مشرفا ومقررا |
| 3- الأستاذ: عمر بوفاس | جامعة جيجل | مناقشا |

السنة الجامعية:

1440/1439هـ 2019/2018م

قال تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ سورة العلق.

صدق الله العظيم

# شكر وتقدير

قال تعالى" لئن شكرتم لأزدنكم"

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من لم يشكر النّاس لم يشكر الله"

وقال الشاعر

الشكر أفضل ما حاولت ملتمسا  به الزيادة عند الله والنّاس

انطلاقا من كل هذا أتقدم بخالص الشكر والإمتنان إلى:

المولى عز وجل الذي وفقنا إلى إنجاز هذا العمل المتواضع، وله الحمد سبحانه على كل ما حصلناه، وله الفضل الكامل في إتمام ثمرة هذا الجهد.

إلى كل من أنار دربنا في طلب العلم والمعرفة ورافقنا في إنجاز هذا الجهد من أساتذة وزملاء، من قريب أو من بعيد، ونخص بالذكر الأستاذ المشرف" بوتيوتة عبد المالك" الذي كان نبراسا أضاء عتمة طريقنا منذ لحظة تفكيرنا الأولى في موضوع هذا البحث إليهم جميعا نقدم شكرنا الجميل

# إهـــداء

إلى من قال الله فيهم: ﴿**ووصَّينَا الإنسَانَ بِوالِدَيْه إحسَاناً**﴾ ومن كان دعاؤهما سندا لنا ولا زال لطريقنا نبراسا

إلى التي لم أجد كلمة توفي حقّها حفظك الله **(أمّي الحبيبة)**

أطال الله في عمرك

إلى الذي ربّاني على الفضيلة والأخلاق ( **أبي العزيز**) أطال الله في عمرك

إلى إخواني أنعم الله عليهم بالخير

إلى إخوتي الأعزّاء، سدّد الله خطاهم

إلى كلّ من الأهل والصّديقات كبيرهم وصغيرهم

إلى كل من أحبّ لي الخير ودعا لي به... إلى كلّ أساتذتي الكرام الذين كان لهم فضل تعليمي... إلى كل من كان له حقٌّ عليّا

إلى كلّ من حملتهم ذاكرتي وحفظهم قلبي لكن لم يكتبهم قلمي إليكم جميعا أهدي هذا العمل المتواضع

**مليكـة**

# مقدمـــة

لقد حظيت الطبيعة عند الشعراء، منذ القديم بعناية خاصة واهتمام كبير، فراح الشاعر يتأمل ما يحيط به من مناظر ومظاهر ساعيا إلى فهم أسرارها وتحديد نواميسها، معبرا في أحيان كثيرة عمّا يختلج في وجدانه بلغة شرعية راقية، وكان أول ما استوقفه مشاهد طبيعية التي يعيش بين أحظانها ويمشي في مناكبها، من صحاري وبراري، والظواهر المختلفة المحيطة به، فترك كثيرا من الشعراء بصمتهم الراسخة في هذا الميدان واحتلوا مركزا مرموقا، وخصصوا له قصائد كاملة، ومقاطع شعرية مطولة في بعض قصائدهم حتى غدا معلما بارزا من معالم إبداعهم الأدبي.

إن الولوج في أعماق النص الشعري يكشف الذات المبدعة والمؤثرات الخارجية فيها ويمدنا بمعرفة واسعة.

ولم يكن وصف الطبيعة فنا مقصورا ومحصورا في بيئة الصحراء والمشرق، بل وجد وبشكل كبير في الأندلس وكان لهذه الطبيعة الساحرة أثرها الكبير في خصب عقول الأندلسيين ورفاهية حسهم ورقة تصويرهم واسعة خيالهم الرفيع، وهي غالبا ما تبعث في النفس روح التأمل والتدبر سعيا لفك ألغازها وفهم طلامسها، لذا كان الشاعر مجبرا على التفاعل معها، ففي أحضانها تقلّب وعلى ربوعها نما ترعرع، كما كانت مصدر فرحه واعتزازه أو سخطه وتدمره، فتارة يخفق قلبه بالشوق والحنين وأخرى ينتفض من ألم وأنين.

وهكذا شكلت الطبيعة حضورا طاغيا في النص الشعري، صاغها جملة من الشعراء الذين احترفوا الطبيعة بوجوه متعددة، فكان لهذه الطبيعة أثر بليغ في تأجيج قريحة كل من " **البحتري وابن خفاجة**" ولهذا عمدنا غلى اختيار "**وصف الطبيعة بين البحتري وابن خفاجة**" كموضوع للدراسة، وقد كان لعامل الرغبة والفضول في معانقة الفيض الإبداعي لكل من الشاعرين، وكذا استكشاف الثَّراء الشّعري لديهما من أهمّ العوامل الذّاتية التي دفعتنا إلى الخوض في غمار المسيرة البحثية، ناهيك عن محاولة استنطاق عالمها الشّعري الذي كتب في وصف الطبيعة من أجل الكشف عنها، ومدى سيرورتها في نسيج النّص الشّعري، وإيمانا منا بقدرة عواملها الشعرية على تصويرها، بحكم الدّلالات النّفسية المخبّأة تحت ظلال الطبيعة الميّتة والحية التي تركتها

الطبيعة في نفسيتها، وهو السّبب المباشر الذي جعلنا نلِج لهذا الكيان الإبداعي، ليبقى الهدف من دارستنا هو أن تزيح الستار عن عوالم كل من " **البحتري وابن الخفاجة**" التي حاكت وصف الطّبيعة، وأن تنصت لهذا البوح الشّعري الذي سجل حضوره في معالم فنّية وحسّية متميّزة.

ونحن نجوب غمار هذا البحث استوقفتنا إشكالية مركزية لكشف تيمة الطبيعة وما أحدثته في جسد النص الشعري عند كم من "**البحتري وابن خفاجة**"، وكيف أثرت على إبداعاتهما والمتمثلة في:

هل وصف الطبيعة حافز على الإبداع عند كل من البحتري وابن خفاجة؟

لتنطوي تحتها جملة من التساؤلات الفرعية اختصرت في النقاط التالية:

- كيف عانق وصف الطبيعة العوالم الشعرية للشاعرين؟ وكيف استطاعا أن يحوّلا وصف الطبيعة إلى تيمة بارزة في جسد نصوصها الشعرية؟

- ما هي بواعث وصف الطبيعة عند الشاعرين؟

- وما مدى تجليها في فضاءات معالمها الشعرية؟

- هل بقيا الشاعران عن حدود التقليد والمعايير الجاهزة أم تجاوزاها إلى حركات إبداعية جديدة؟

- هل أنسى وصف الطبيعة هموم الشاعرين أم قادهما إلى حمل روح الالتزام؟

وحتى يتسنى لنا الإجابة عن كل هذه التساؤلات، وقصد الإحاطة بموضوع الدراسة ورصد تجليات وصف الطبيعة عند كلّ من "**البحتري وابن خفاجة**" استندنا إلى منهجين رافقنا في هذه المسيرة البحثية نذكر: المنهج التاريخي الذي ساعدنا على التبصّر في أهمّ المحطّات التاريخية في مسار الشّعر العربي القديم الذي تجلّت فيه معالم

وصف الطّبيعة، واستقصاء لبعض الوقائع التاريخية التي جعلت من " **البحتري وابن خفّاجة**" يخوضان في وصف الطبيعة .

في حين فرضت القراءة التّأويلية سيطرتها على هذه الدراسة، لما لهذه القراءة من أهمية ودور في مقاربة النّص الشّعري وفق آليات حاولنا تطويعها لبعض بذلك النص رؤية وقراءة جديدة، وفق أفق توقع وتفتح على قضايا فنية من صورة شعرية وكذا موسيقى شعرية ، وبهذا يكون القارئ محاورا جيدا للنّص وهذا ما أسقطناه على قصائد " **البحتري وابن خفاجة**".

لقد عمدنا في هندسة وتصميم أفكار بحثنا على خطة منهجية، كان لزاما علينا تقسيمها إلى مدخل وفصلين فخاتمة ، تحدثنا في المدخل عن وصف الطبيعة بين المفهوم والمصطلح، كما أبرزنا تطورات وصف الطبيعة في الأدب العربي لقديم بدءا من الوصف في العصر الجاهلي ثم الوصف في العصر الإسلامي والأموي ثم العصر العباسي لنخلص إلى العصر الأندلسي.

أما الفصل الأول والذي جاء تحت عنوان: " **بواعث وتجليات وصف الطبيعة في شعر البحتري وابن خفاجة**"، والذي أدرجنا تحته أربعة مباحث، المبحث الأول تم التطرق فيه إلى بواعث وصف الطبيعة في شعر البحتري ليتم الانتقال بعد ذلك إلى تجليات وصف الطبيعة في شعره والمتمثلة في المظاهر الطبيعية والحضارية ثم يليه المبحث الثالث تناولنا فيه بواعث وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة، لنخلص إلى المبحث الرابع الذي أبرزنا فيه تجليات وصف الطبيعة في شعره

لننهي الجانب النظري باستحضارنا لشاعرين كانا نموذجا حيا لمن مثل وصف الطبيعة في الشعر العربي القديم.

أمّا الفصل الثاني والمتمثل في الجانب التّطبيقي والذي عنونّاه ب " **وصف الطبيعة بين البحتري وابن خفاجة** "، حيث قسمناه إلى مبحثين: تناول المبحث الأول الصورة الفنية عند الشاعرين في قصائد الوصف من حيث بناء القصيدة والألفاظ والأسلوب، الوحدة العضوية، والموسيقى الشعرية لدى الشاعرين بنوعيها: الموسيقى الداخلية ( موسيقى الحروف والألفاظ)، والموسيقى الخارجية ( الوزن والقافية)

أما المبحث الثاني فيتحدث عن الصورة الشعرية في شعر الوصف عند الشاعرين وشيوع الخيال بأنواعه والحسية واللون والحركة فيها.

وكان لزاما في هذا العمل أن عالجنا عدد معتبر من قصائد "**البحتري وابن خفاجة**" لما تتسم به قصائدهما بالقصر، كما اكتفينا في مكاشفة وصف الطبيعة عند الشّاعرين على محطّات قرائية لبعض القصائد التي تمتاز بنوع من الطول.

لتكون الخاتمة تلخيصا لأهم النتائج والاستنتاجات التي توصّلنا إليها في رحلة البحث، أين وقفنا فيها على نقاط الاختلاف والتشابه بين " **البحتري وابن خفاجة**" في معالجتها لوصف الطبيعة.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع كانت خير معين لنا وزوّدتنا بالمادة المعرفية اللاّزمة ، ونذكر أهمها: الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، ابن بسام الشنتيرني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المقري: نقح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، ابن رشيق القيروان: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، بالإضافة إلى ديوان الشاعرين والتي كانت موضوع الدراسة.

أما بالنسبة للصعوبات والعراقيل التي واجهتنا أثناء البحث، فإننا نجملها في ضيق الوقت والتشعّب الذي عرفه موضوع وصف الطبيعة، فالدراسة واسعة، تمتدّ إلى شاعرين ولم تقتصر على شاعر بعينه، علاوة على ذلك صعوبة التقاط جميع الأعمال الشّعرية لكل من البحتري وابن خفاجة وتعقبها بالتحليل والدراسة

للكشف عن مظاهر وصف الطبيعة فيها، مع العلم أن ديوان البحتري يقع في خمسة أجزاء بعدد 3173 صفحة، وعلى هذا اكتفت الدراسة على جزء من الشواهد.

لكن بفضل الله وعونه أولا وبفضل توجيهات الأستاذ المشرف الذي رسم لنا الطريق ومدّ لنا يد العون وبعث فينا الأمل استطعنا أن نصل إلى آخر محطّة من مسيرة هذا العمل المتواضع الذي لا ندّعي فيه الكمال.

فلا يسعنا في الختام سوى أن نقدم كلمة شكر وعرفان لهؤلاء ولكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث.

# مدخل: وصف الطبيعة

# بين المفهوم والمصطلح

## 1- مفهوم الوصف

### أ- لغة:

الوصف ركن أساسي من أركان العمل الأدبي، ولعل الرجوع إلى المعاجم اللغوية يكشف عن المعنى أو المعاني التي يرجع إليها (الوصف) في اللغة.

فالمعنى الأساسي للوصف كما ورد في لسان العرب: « وصف الشيء له وعليه وصفا وصفة: حلاّه، والهاء عوض عن الواو، وقيل: **الوصف** المصدر و**الصفة**، اللّيث: **الوصف** وصفك الشيء بحليته ونعته، وتواصفوا الشيء من الوصف. وقوله عز وجل: « وربنا الرحمان المستعان على ما يصفون »، أراد ما تصفون من الكذب »[1].

من تعريف ابن منظور نجد أن المعنى المسيطر على مفهوم الوصف هو الحلية أو الزينة التي تهدف إلى محاولة خلق شكل جديد، أو إجراء تغيير ما على الهيئة الأصلية بما يوحي، أحيانا بعدم المصداقية، وهذا يتوافق مع المعنى القرآني، حيث وردت الكلمة بصيغها المختلفة (تصف، يصفون، وصفهم) في القرآن الكريم عدة مرات، وكلها جاءت تقريبا بمعنى واحد وهو الكذب والاختلاق.

كما يطالعنا معنى آخر في المعجم المفصل في الأدب، إذ جاء فيه **الوصف** "هو الكشف والإظهار، فإذا قالوا: وصف الثوب الجسم فقد أرادوا أنه نمّ عليه ولم يستره[2].

وفي القاموس المحيط، إذ جاء فيه « وصفه يصفه وصفا وصفة: نعته، فاتصف، والوصّاف: العارف بالوصف، ولقب أحد ساداتهم، أو اسمه: مالك بن عامر، ومن ولده: عبيد الله بن الوليد الوصّافي المحدث، وكأمير:

[1] ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، مج 15، ص223.

[2] محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1999م، ج2، ص884.

الخادم والخادمة، ج: وصفاء، وتواصفوا الشيء: وصفه بعضهم لبعض، واستوصفه لدائه، سأله أن يصف له ما يتعالج به، والصفة: كالعلم والسواد.[1]

فهذا المعنى اللغوي يقود إلى ذكر الصفات الخاصة بالشيء وليس الكذب أو الحلية.

وقد فسر ابن رشيق الوصف فقال: « الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتشبيه، مشتمل عليه، وليس به، لأنه كثيرا ما يأتي في أضعافه، والفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء، وأن ذلك مجاز وتمثيل »[2]. أي أن الوصف تصوير دقيق للأشياء.

أما التعريف الذي قدمه قدامة بن جعفر فيما يخص "الوصف" في كتابه "نقد الشعر" يقول فيه: "الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني إلى الموصوف مركب منها، ثم أظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحسن بنعته »[3].

بمعنى نقل الشيء كما هو بما فيه من الأحوال والهيئات، فالإنسان بطبعه ميال إلى معرفة ما حوله من الموجودات وتصويرها بالسمع والبصر والفؤاد، ويزداد الوصف دقة بازدياد مفردات اللغة، والوصف الشعري أرقى ما يكون في اللغة وأكثر وقعا.

وأحسن الوصف عند مصطفى صادق الرافعي هو "ما خرج عن علم، وصرفته روعة العجب، فإن العلم يعطي المادة الحقيقية، والعجب يكسبها صورة من المبالغة الشعرية »[4].

---

[1] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز الأبادي: القاموس المحيط، قدم له وعلى حواشيه أبو لوفا نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 2004م، ص875.

[2] قدامة بن جعفر: نقد العشر، تحقيق نجوى محمود حسين، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر، د ط، 2002م، ص49.

[3] بان رشيف القيرواني: العمدة في محاسن السفر وآدابه ونقده، تحقيق محمد معي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، 1972م، ج1 ص294.

[4] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار هنداوي، القاهرة، مصر، د ط، 2012م، ص119، (htt/://www.hindawi.org).

وقد يختلف الشعراء فمنهم من يجيد الوصف في الأغراض كافة ومنهم من يجيد في غرض شعري معين، ولا يجيد الوصف في غرض آخر لكنهم ينفردون بالشهرة في غرض واحد.

**ب- اصطلاحا:**

إن كلمة الوصف كثيرة الشيوع وواسعة الانتشار لها تعريفات عديدة تنهل من مشارب معرفية شتى، ونحن ما يعنينا من ذلك كله سوى الوصف الأدبي عموما والشعري على وجه الخصوص.

والواقع أن مفهوم الوصف لم نجد له مفهوم اصطلاحي موحد في الكتابات القديمة أو الحديثة، على حد سواء.

ومن خلال التعريفات السابقة نستنتج المعنى الاصطلاحي للوصف أنه تصوير للموصوف ونقل صفاته بصورة وأسلوب بلاغي على المتلقي.

والوصف في العصر الحديث حسب وجهات نظرهم أنه فن بالغ الأهمية في تشكيل النصوص الأدبية فهو "عبارة عن عدسة يرصد جل العناصر الدقيقة وهذا ما يضفي تفردا خاصا لهذا العمل، فالوصف قد يكون أكثر ضرورة للنص السردي، إنما أيسر أن نصف دون أن نسرد، وما عسر أن نسرد دون أن نصف »[1].

## وصف الطبيعة في الشعر العربي

يعد الوصف من الأغراض الشعرية الأصلية في الشعر العربي، حيث طرق الشعراء به كل ميدان قرب من حسهم وإدراكهم، أو قام في تصورهم، فالشاعر الواصف واسع الخيال قادر على تصوير المحسوس إلى صورة حية، يظهر فيها إبداعه الناتج عن انفعالاته وتأثره بما حوله.

[1] عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، علم المعرفة، الكويت، د ط، 1998م، ص250.

## الوصف في الشعر الجاهلي:

ارتبط الوصف منذ القدم بالشعر أكثر من النثر وهذا ما جعل الكثير من الأدباء يعتقدون أن الوصف لا يكون إلا في الشعر وهذا راجع إلى هيمنة الوصف في أغراض الشعر.

والوصف صفة ملازمة للنفس البشرية خاصة في طور البداوة "فالشعراء يميلون إلى كل ما تراه العين، فكانت أشعارهم عبارة عن لوحات فنية نقلت بدقة عن البيئة التي يعيشونها، فوصفوا الناقة والخيل والحرب ومعداتها ومشاهد الطبيعة التي يعيشون فيها ويمشون في مناكبها من صحار وجبال وسحاب وأمطار ورعد وبرق ورياح »[1]، وقد تضطرهم الظروف للنزوح عن الوطن الأصلي، فيتركون ديارهم، وهذا ما جعله دائما يصارع الأهوال والأخطار، فزادت البيئة من حدة طبعه؛ "لذلك جاء الشعر الجاهلي ابن تلك البيئة متأثرا بها ومؤثرا فيها، وقد تأثر بعوامل كثيرة طبعته بطوابع عرف بها وكشفت عن كنهه ومخبوءات"[2]، ومن أبرز العوامل تأثيرا على الشاعر الجاهلي تلك الصحاري الشاسعة التي راح يتفاعل معها ويصفها ويصورها تصويرا دقيقا؛ بل هو يصف ما لا يدركه البصر، ويصور ما لا يعرف كنهه النظر، فيصف الحس، ويصور الخاطر.

والحق أن الشاعر الجاهلي لم يسقط الطبيعة من حسابه، بل استمد منها الكثير من تشابيهه وتعابيره، ولكنها بقيت مطية لأغراض أخرى، ولم تكن غرضا مستقلا، بل كانت ترد في ثنايا القصيدة الجاهلية.

وللوقوف عند الوصف في العصر الجاهلي، اخترنا بعض الشعراء، الذين برعوا في الوصف وأعطوه الحظ الوافر في دواوينهم مثل: **امرؤ القيس** فالوصف عنده له مكانة. "للوصف في شعر امرئ القيس مكانة تعدل مكانة الغزل أو تكبرها، لأن الغزل موضوع واحد والوصف موضوعات كثيرة وبعبارة أدق لأن للوصف موضعا في

[1] عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشهر العربي، (الوصف في العصر الجاهلي)، دار النشر، مطبعة مصطفى بابي، القاهرة، مصر، ط1، 1949م، ج1،ص48.

[2] المرجع نفسه: ص50.

كل موضوع ولا نغالي إذا قلنا إن الوصف شطر الديوان نلقاه في أكثر القصائد، على اختلاف أفكارها، يمازج هذه الأفكار ويوضحها وينقلها من التجريد إلى الحس"[1].

وقد وصف امرؤ القيس الليل بطريقة لم يصفها أحد من الشعراء الذين عاصروه، ووصف فرسه وصفا مستعملا فيه إيقاعا مناسبا لحركاتها، بأنها سريعة، فهذا الوصف لفرسه فيه نوع من الجمالية للفرس.

ومن الذين برعوا في الوصف نجد **النابغة الذبياني** وهو « من شعراء المدرسة الأوسية، وقد عني شعراء هذه المدرسة عناية واضحة بالوصف الحسي الدقيق، وذكر التفصيلات الواقعية وتسجيل جزئيات الموضوع، وصبغ المشاهدة المرسومة بألوان زاهية قوية التأثير »[2]. وقد وصف النابغة الحية، كما وصف الفرات فإذا الرياح تثير فيه الأمواج وكذا الماء الوافد على النهر.

## وصف الطبيعة في الشعر الإسلامي والأموي:

قامت الحياة العربية قبل الإسلام على نظام القبيلة التي كانت تمثل الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

« ولما جاء الإسلام رسم للناس مناهج السلوك التي يسلكها في مجتمعه، والفضائل التي يتحلى بها، ومن جرى لسانه بالتبشير بالدين الجديد، أو إذاعة تعاليمه فهو المحكوم على قوله بالصحة والسداد، وهو المستثني من الذين يتبعهم الغاوون الذين يهيمون في كل واد، ويقولون ما لا يفعلون »[3].

وعلى هذا الأساس كان من آثار مجيء الإسلام على الشعر أنه حاول تغيير مهمته في الحياة العربية وتزويده بقيم وأهداف جديدة تتفق وطبيعة الفكرة الإسلامية، هذا المقياس هو الدين الجديد ينظر إلى الشعر على ضوء هديه.

---

[1] عبد العظيم علي قناوي: المرجع السابق، ص63.

[2] المرجع نفسه: ص68.

[3] محمد خضر: أدب صدر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، 2008م، ص ص 191، 192.

"الإسلام لم يكن حدثا جديدا فحسب بل كان لأول الأمر حدثا خطيرا في حياة العرب، فقد أخرجهم من عالم التعبد للأوثان وقوى الطبيعة التي كانت ملاذ لهم إلى عالم آخر مناقض تماما وهو عالم التوحيد والإيمان بالكائن الأعلى مدبر الكون ومنشئه، ومن عالم الظلم والعدوان واقتراف الآثام إلى عالم الأمن والعدل والمساواة والأخلاق الفاضلة، ومن عالم التشتت في واحات القبيلة إلى عالم التجمع في أمة واحدة متكافلة يشد بعضها شدا "[1]، وهذا طبيعي أن يترك أثارا في نفوس العرب، لكنهم قد آمنوا به أخلص الإيمان وأصدقه، وقاموا يحمونه بسيوفهم وأرواحه وشعرهم.

"وجدير بالذكر أن المسلم في الفتوح قد مارس ألوان الشعر التي كانت محظورة عليه قبل الفتح في ظل فكرة جديدة، فوقف منها موقف المدافع، وانبرى يشيد بانتصارها على أعدائها"[2].

فقد كانت الفتوح متنفسا للعرب المفطورين على الشعر والفصاحة وهي عناصر شاعرية راقية أمثال: حسان بن ثابت، كعب بن مالك، عبد الله بن رواحة، يقول عليه الصلاة والسلام: « إن من البيان لسحر، وإن من الشعر لحكمة».

« وفي هذا العصر هجر الشعراء معظم الأغراض العشرية التي تتعارض مع تعاليم الإسلام، كالغزل الفاحش وصف الخمر ومجالس اللهو والفخر والهجاء القبلي، وقد نبعت أغراض أخرى تتماشى مع الأصول الإسلامية كالدعوة إلى الدين الحنيف والعمل به ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام »[3].

كما يظهر غرض الوصف عند الشاعر عبدة بن الطبيب* حيث وصف الناقة ورحلته بعد أن تخلص فرمى نفسه بالضلال، واستغرق وصفه لناقته، وصفا بعظم الخلقة والسرعة والقوة، وتعرض في أثناء ذلك إلى وصف ما صادفه في الرحلة من القطا، ثم يعود إلى وصف الناقة، فيشبهها بثور وحشي، وصفه بأنه بعيد ما بين القرنين

[1] عبد المتعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د ط، 1965م، ص171.

[2] المرجع نفسه: ص65.

[3] ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محي الدين، دار الجي، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص404، (http://www.al-Mostafa.com).

محجل مكحول العين، يقول ابن رشيق: "إلا أن من الشعراء والبلغاء من إذا وصف شيئا بلغ في وصفه، وطلب الغاية القصوى...

انتهى عصر النبوة والخلفاء الراشدين، وبعد الأموي ظهرت فيه الكثير من الأغراض الشعرية.

لا ريب أن الشعر قد ازدهر في عصر بني أمية ازدهارا كبيرا، وظهرت هناك أغراض جديدة كالشعر السياسي، الغزل العذري وشعر المدح والوصف، وهذه الأغراض هي أغراض للشعر الجاهلي التي نجدها ممثلة في الشعر الأموي تمثيلا.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا «إن الطبيعة دائما كانت ملهما بالغ التأثير في نفسية الشاعر العربي، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يصدرون عنها في أشعارهم، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم، فهم يصورون فلواتها بكثبانها ورمالها وغيثها وسيولها وخصبها وجدبها ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها...»[1] تحدثوا عن الأطلال وتوقفوا عن وصف الإبل واستعاروا لتلك الأوصاف المعاني الجاهلية.

«وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة، فإن الصحراء لم تجف ينابيعها في نفوسهم، بل لقد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم، على نحو ما نجد عند مبرزيهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجرير »[2].

إن الوصف عند **الفرزدق** ليس غرضا مستقلا بذاته ولا نرى الوصف في ديوانه سوى نسبة ضعيفة من شعره ولا نكاد نجده إلا في مقدمات مدحياته أو بعض الأبيات المبثوثة في ثنايا المدحيات، ومن الموصوفات التي وصفها في شعره نجده قد وصف الرحلة و وصف الناقة، و وصف المرأة و وصف الخيل وغيرها من الأوصاف.

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط7، 1963م، ص380.

[2] المرجع نفسه: ص386.

أما الوصف عند **جرير** فقد اهتم بشعر النقائض، ولم يكن الوصف غرضا مستقلا في شعره، ولكن نجد له الوصف في ثنايا قصائده، فقد وصف الصحراء و وصف الجبل و وصف الناقة و وصف أيضا الطبيعة الجديدة من أنهار وجبال و وديان.

« لم يصف شاعر عربي مثل ذي الرمة، فقد وصف الصحراء وقد عشقها وتغنى بها، عشق أيامها ولياليها ورمالها وكثبانها... وكأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء »[1].

نستنتج أن الشاعر الأموي مضى على سنة أسلافه وأجداده يستلهم الصحراء، فرغم أن هؤلاء عاشوا في بيئات عصرية إلا أن الصحراء ملهمهم الأول في أشعارهم وهذا راجع إلى آثار البيئة الصحراوية في نفوس الأمويين.

## وصف الطبيعة في الشعر العباسي:

كان العصر العباسي ازهى عصور الحضارة العربية، إذ جرى احتكاك العقل العربي بمدنيات البلاد التي امتد إليها سلطانه، وباتت حركة الترجمة تحمل إلى العرب تراث الأمم والشعوب وبدأ العربي في وعي التفتح الجديد يتطلع إلى العلوم تطلع المتشوق إلى المعرفة والضمآن إلى اكتناه حقائقها.

« وكان لتأثير الثقافات المختلفة التي شحدت ذهن الشاعر العربي وقع كبير على مجرى الشعر في العصر العباسي، وكان للثقافتين الهندية واليونانية تأثير مباشر على الشعر »[2] فقد تأثر الشعر إلى حد كبير بالتطور الثقافي والاجتماعي في العصر العباسي، وكان أهم مزايا هذا التأثر هو توسع الملكات الذهنية للشعراء، مما أدى إلى ظهور نمط جديد من الإبداع الشعري، فلا موضوع الناقة ولا أوصافها أصبحت مألوفة، لأن العصر العباسي رقت فيه الألفاظ وسلست، وصار الشعر يهتم بوصف القصور، والرياض والمجالس والزهور، وتدفق المياه، فاتسع الشعر نحو

[1] شوقي ضيف: المرجع السابق،ص385.

[2] محمد خفاجي: الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004م، ص35.

الطبيعة، وتناول مظاهر البيئة الجديدة، الهياكل، المطاعم والحدائق وصفوا الطبيعة الجميلة التي عاشوا في أحضانها، والقصور المشيدة.

« فالأمم الطبيعية هي أصدق الأمم في وصف الطبيعة؛ لأنه سبيل الحقيقة في ألسنتها، ولأن حاجاتها الماسة إليه تجعل هذا الحس فيها أقرب إلى ذلك سعة »[1].

بالرغم من هذا التطور المذهل، وإقبالهم الشديد لوصف الجانب المادي إلى أن شعراء بنو العباس يحنون إلى القديم، فألفوا قصائد على النمط القديم، « الربيع يحمل أزهاره، وتنوعها واخضرار الطبيعة، التي تبهر عيون الناظرين إليها، إذ اتفق أكثر الشعراء في العصر العباسي على التغني بجمال تلك المناظر الخلابة، بكل ما تحمله من مواصفات تجسد عظمة الخالق القدير »[2].

من شعراء العصر العباسي نجد أبي نواس فحين يطالع الدارس شعره يجده قد وصف حياته أو كاد على وصف الخمر والتغني بها.

« وبالرغم من هذا التطور إلا أن تيارا معاكسا رفض أن ينخرط في الواقع الجديد، وكان لهذا الصراع بين القديم والجديد آثار بارزة في فن الوصف، فأبو نواس زعيم التجديد في الشعر العباسي، استبدل المقدمة الخمرية بالمقدمة الطللية ويصف ناقته »[3].

ومن الشعراء العباسيين أيضا نجد **ابن المعتز**، قد شكلت الطبيعة الحيز الأكبر في شعره، وقد حاول أن يقدمها في أبهى صورها، « وعمرت الألوان شعر الطبيعة لديه، وتعمد أن يصبغه بألوان وأن يقدمه بمنظار جمالي لا يخلو من صنعة الفن، فالحياة في نظره ربيع دائم والأرض لا تحمل إلا بزهورها المتفتحة وغصونها الخضراء المورقة »[4].

وأغلب أوصاف ابن المعتز مستمدة من بيئته المترفة، وقد أشار إلى ذلك معاصره ابن الرومي.

---

[1] مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ص132.

[2] حسن الشمري: لمحات من وصف الربيع في العصر العباسي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد 8، تموز 2012م، ص10.

[3] زكي العشماوي: خمريات أبي نواس- دراسة تحليلية في الشكل والمضمون-، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، 2000م، ص97.

[4] عبد الفتاح نافع: الشعر العباسي قضايا وظواهر، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص178.

« ويحتفي ابن المعتز بوصف الروضة غب المطر، وله وفي ذلك أوصاف جميلة، كأن يشبه الرياض في حسنها بعد هطول المطر بالعروس التي تتحلى بالأقحوان وتختال في ثيابها الخضراء »[1].

ومن الذين برعوا في الوصف وتفننوا في نقل ما تموج بهم بيئتهم **البحتري**، فكان له لوحات فنية رائعة الجمال، فوصف الطبيعة المائية كالأنهار و وصف الربيع والرياض والسحب و وصف القصور، والمعارك الحربية...

« نجد أيضا شعراء بني حمدان وقد اعتنوا بالأنهار والبحار وخاصة كشاجم، وكان لكشاجم مفردات عديدة للمائيات كالنيل والفرات ودجلة ولكنه كان متأثر تأثرا كبيرا بنهر قويق، وهذا النهر يعرف بأنه نهر موسمي أي أنه مائه تجف صيفا وتفيض شتاء »[2].

فالشعراء يتخذون دائما الطبيعة مصدر إلهام لهم، يأوون إليها متأملين ظواهر الحياة والكون، ويستمدون منها وحي الشعر، فالطبيعة ملهمة الفنان، ومصدر الوحي، ومنبع الإلهام وتهوى إليها أفئدة الناس مهما اختلفت ثقافتهم وبيئتهم، فالإنسان بفطرته مغرم بالطبيعة، مقدس جمالها.

## وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي

تناول الأندلسيون في شعرهم جميع الموضوعات التي تناولها المشارقة من مدح ورثاء، وغزل، وخمر، ووصف وحماسة، وفخر وهجاء... الخ، وما إلى ذلك، إلا أنهم صرفوا معظم همهم إلى الوصف، ولاسيما وصف الطبيعة بجنائنها وأزهارها ومشاهد فصولها.

« لقد أدرك الأندلسيون أن الله أنعم عليهم بتلك الطبيعة الساحرة والجنان الوارفة فتعلقوا بها وفتنوا بجمالها، وفضلوها على سائر الأقطار، وكان هذا الاتجاه إلى عشق الطبيعة والالتصاق بالبيئة الأندلسية انعكاسا

[1] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 2008م، ص305.

[2] زينب عبد الكريم حمزة: وصف الطبيعة في الشعر العباسي، لوحات كشاجم- نموذجا- ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 35، تشرين أول، 2017م، ص1.

للشعور الوطني في نفوس الأندلسيين، وتعبيرا عن نزعة أندلسية قوية تأصلت في نفوس الشعراء وظهرت في شعرهم بشكل واضح »[1].

شارك الوشاحون الشعراء في الالتفات إلى مجال الفتنة في بلادهم فوصفوا كثيرا من مظاهر الطبيعة كالرياض والأودية وغيرها، وامتزجت أوصافهم للطبيعة بأغراض أخرى كالخمر والغزل والحنين.

نبغ في الأندلس شعراء استطاعوا أن يرفعوا مكانة الأدب الأندلسي عامة، والشعر الأندلسي خاصة، بين الآداب العربية الأخرى، « فاحتل بذلك الشعر الأندلسي مكانة بارزة بفضل جهود هؤلاء الشعراء، منهم: ابن عبد ربه الأندلسي، ابن زيدون، ابن خفاجة، ابن دراج القسطلي، ابن هاني، الغزال، لسان الدين ابن الخطيب عبد الرحمان الداخل، ابن الآبار »[2].

هكذا تهيأ للشعراء أن يصوروا الطبيعة بما فيها من مواطن الجمال والفتنة، وأن يقفوا عند كل جزئية من جزئياتها، فوصفوا الرياض والأزهار والمتنزهات والفوارات والأنهار وغيرها من مظاهر الطبيعة ول يتركوا منظرا من مناظر طبيعتهم الساحرة إلا وصفوه وتغنوا به في أشعارهم.

[1] فوزي عيسى: في العشر العباسي، ص17.

[2] المرجع نفسه، ص18.

## المبحث الأول: بواعث شعر الطبيعة عند البحتري

لقد برع البحتري في وصف الطبيعة حتى عدّ من أربابه لما له من شهرة في وصف جماليات الكون، ومعطيات الحضارة الجديدة، فعشقه للطبيعة كمن عشق محبوبته، فقد جعلها منبع إلهام يأوي إليها متأملا ظواهر الحياة، ويستمد منها وحي الشعر،« ولما كان القول في الشعر لا يخلو من أن يكون وصفا أو تشبيها أو حكمة أو تاريخا، احتاج الشاعر أن تكون له معرفة بنعوت الأشياء التي من شأن الشعر أن يتعرض لوصفها ولمعرفة مجاري أمور الدنيا وأنحاء تصرف الأزمنة والأحوال، وأن تكون له قوة ملاحظة لما يناسب الأشياء والقضايا الواقعة من أشياء، أخر تشبهها وقضايا متقدمة تشبه التي في الحال»[1].

وعليه « فالشعر لا يأتي نظمه، إلاّ بحصول أشياء منها: النشء في بقعة، أو يكون صور لما جال خاطره من خيالات»[2]، وهما باعثان وجدناهما في شعر البحتري.

### أولا: الباعث الطبيعي

كان للحضارة الجديدة والثقافة الواسعة دور بارز في توسيع الخيال لدى الشعراء، فلم تعد حدود ثقافتهم مقيّدة بحدود الرقعة الجغرافية التي يعيشون فوقها، فقد امتدت آفاقهم إلى أبعد من ذلك نتيجة هذا الاندماج مع الشعوب الأخرى، وظل الأدب أحد أهم مظاهر هذا الازدهار، نتيجة الانفتاح الحضاري الذي شهده العصر العباسي، وقد أسهم ذلك كلّه في تغذية الشعر العباسي من خلال ما هيأ الأجواء للشعراء لنظم الشعر، يعبرون من خلاله عن الحياة المترفة الناعمة المفعمة بألوان الحضارة، وأسلوب راق سليم، وقد أسهمت الطبيعة بكل أصناف الأزهار والرياض، وعمران وأنواع الحيوانات في تفجري طاقة الشعراء الإبداعية.

[1] أبي الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د ط، 1986م، ص 42.

[2] المرجع نفسه: ص 41.

## ثانيا: الباعث النفسي

ظلت الطبيعة من مقومات الإبداع، وهي أساس تكوين الحالة الشعرية لدى الشاعر، على مرّ العصور والأزمنة والأمكنة، فالبحتري « يجد في الطبيعة وسيلة مناسبة لشرح خلجات نفسه فهو يجسد ما تعطيه تلك الطبيعة من مشاعر ومن أدوات تتماشى في قصائده بمختلف أشكالها»[1]، وأن الشاعر عندما يبدع في قصيدته فإن ذلك يتطلب إحساس بالجمال والعاطفة وذلك الإبداع هو الذي يشكل شخصيته التي تنعكس على قصيدته.

وهكذا جعل البحتري يخوض في عالم إنساني آخر وراء الطبيعة الهادئة اللامبالية، إنه عالمه الخاص وحقيقته الخاصة حبه وأشواقه التي استحالت في الواقع فاختلطت بالوهم والحلم لذلك فإن الطبيعة التي أحبها ليست طبيعة الناس بقدر ما هي طبيعة مضمرة تشتعل في ذهنه، فهي انعكاس لنفسه ومظاهر الكون.

## المبحث الثاني: تجليات الطبيعة في شعر البحتري

اتفقت للبحتري عوامل كثيرة فعّالة أهلته لإجادة الوصف فقد أوتي خيالا صافيا، مفتونا بالأصباغ الزاهية بارعا في إبداع التصورات الرقيقة، وحسّا مرهفا سريع التأثر، فكان به شبه غرام شديد الجمال؛ زادته نشأة الشاعر البدوية، ثم لبته الحضارة التي انتقل إليها، وهي زاخرة بمظاهر البهجة والبهاء، فملأت عينيه بما كان يشتهي من ألوان، ووفرت له ضروبا شتى مما كان يصبوا إليه من رونق؛ فاهتز للجمال من ناحيتين: الجمال الطبيعي، والجمال المصنوع، ولا سيما البناء الرائع الفخم فتفرع وصفه إلى فئتين بارزتين: وصف الطبيعة ووصف العمران.

[1] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، ص 29.

## أولا: المظاهر الطبيعية

### أ- الطبيعة الميتة

### - الربيع

لا يخفى ما للربيع- بجمال أزهاره، وتنوع ألوانه، واخضرار أشجاره، وطعم ثماره المختلفة- من أثر إيجابي في نفوس الناس جميعا، كل بحسب حساسيته أو شعوره بما حوله من جمال الطبيعة الساحرة.

وعلى كثرة وصف الشعراء **للربيع**، فإن للبحتري أبيات رائعة الصّيت في هذا الموضوع، يقول فيها:[1]

أتاك الرّبيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكاً ... من الحسنِ حتى كَادَ أَن يتكلّماَ

وقد نبّه النوْرُوزُ في *غلسِ الدُّجى ... من أوائل وردكن بالأمس نوّما

يُفَتِّقُها بَرْدُ الندى فكأنَّهُ ... يبثُّ حديثا كان أمس مكتِّما

ومن شجر ردَّ الربيعُ لباسَهُ ... عليْهِ كما نشّرْتَ وشيا مُنَمْنَماَ**

أحَلَّ، فأبْدَى للعيون بشَاشَةً، ... وكان قذَى* للعين إذ كان محْرماَ**

ورقّ نسيمُ الريح حتى حَسِبْته ... يجيءُ بأنفاس الأحبّة نُعَّما

لقد رسم لنا البحتري الربيع ضاحكا يكاد يتكلم، وكان الربيع ينبّه الورد في ظلمة اللّيل، كي يستيقظ في الصباح الباكر، ليرى جمال الحياة من أول النهار، فهو يشعر برقة نسيم الريح في الربيع حتى أنه يذكّره بفلذة أنفاس الحبيبة، وفي ذلك يبرز جمال الربيع وتفضله من جوانب شتى.

---

[1] البحتري: الديوان، تحقيق وشرح وتعليق، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، 1964م، مج 1، ص 209.

* النوْرُوزُ: النيروز: أكبر أعياد الفرس ومعناه بالفارسية: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية، ويوافق اليوم الحادي والعشرون من شهر مارس، أي مطلع الربيع.

** المنمنم: المزخرف المنقوش المزين.

* القذى: ما يقع في العين وفي الشراب من تبنة أوغيرها.

** المحرم: الذي تجرد من ثيابه وليس ثياب الإحرام.

وفي هذه الأبيات الجميلة يصف البحتري الربيع والتي ترينا عظمة الخالق الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، وصنع هذا الجمال البديع، وكان الشاعر في هذه اللوحة المعجبة التي استعرضها يريد أن يلفت الحس لقدرة القادرة التي تخلق كل هذا الإبداع، فيتوجه القلب البشري إلى التفكر والتدبر في الكون.

هذا وقد حظيت هذه القصيدة باستحسان الدارسين والنقاد، ومنهم من اعتبرها من عيون الشعر العربي، ومنهم من رآها دليلا قويا على شاعرية البحتري وذهب يستدل على ذلك بقوله:

« على الرغم من دوران القصيدة وكثرة إنشادها، فقد بقي له بهاؤها ورونقها، وقدرتها على بث الشعور بالجدّة والتجدد في نفس القارئ، كلما عايشها، وليس ذلك إلا أنها وثيقة الصلة بأجمل ما في الكون من مظاهر، ويأثمن ما في أعماق الإنسان من مشاعر»[1].

ومن الأساليب الجديدة التي اتبعها البحتري في قصائده فقد ربط المدح بوصف الطبيعة والقصور، وفي ذلك يقول مصطفى الشكعة: " إن البحتري وهو المداح المجيد والوصاف المبدع لم يدع الفرصة نفلت منه وقد انس في نفسه القدرة المكينة على ربط المدح بالوصف، فعمد إلى مدح الخلفاء قارنا مدائحه بأوصاف لقصورهم وحدائقهم، وصور من الطبيعة التي تبهج خواطرهم ولا تنال من قدر القصيدة بل ترفع من شأنها فنّا وأسلوبا، لقد عمد شعراء قبل البحتري إلى شيء من ذلك ولكن في نطاق ضيق وحالات قليلة، وأما البحتري فقد جعل من ذلك دستورا ومذهبا بحيث جعل أكثر مدائحه مرتبطة بالطبيعة الغضة الباسمة"[2].

[1] صالح حسن اليظي: البحتري بين نقاد عصره، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1982م، ص 78، نقلا عن: هجرس عبد الكريم: الطبيعة في شعر البحتري- دراسة أسلوبية- مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستر في الخطابات المستخدمة في العصر العباسي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1430 هـ -1431 هـ /2009م-2010م، ص 62.

[2] مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1986م، ص 711.

ومن أمثلة المزاوجة بين المدح ووصف الطبيعة ما قاله البحتري في مدح المتوكل حين زار دمشق سنة 244هـ حيث يقول:[1]

العيشُ في ليْل " داريَّا "*إذا بَرَدَ والرَّاحُ نمْزُجُهاَ بالماء من "برَدى"**

قلْ للإمام الذي عَمّتْ فوَاضِلُه شَرْقاً وغَرْبًا فما نُحْصي لها عَدَداَ

اللَّهُ ولاَّك عن علْمٍ خِلاَفَتَهُ واللّهُ أعطاكَ كما لم يُعْطه أحدَا

وما بعثْت عتَاقَ الخيلِ في سفرٍ إلاّ تعرَّفْتَ فيه اليُمنَ والرّشَداَ

أمَّا " دمشقُ" فقد أبْدت محاسِنهاً وقد وفى لك مَطْريها بما وَعَداَ

إذا أرَدتَ ملأتَ العيْنَ من بَلَدٍ مَسْتَحْسَنٍ، وزمانٍ يُشْبِهُ البَلَدَا

يُمسي السَّحابُ على أجْيالها فِرقاً ويُصبح النَّبْتُ في صَحْرَائِها بَدَداَ

فلست تبصر إلاّ واكِفاَ خَضِلاَ، أو يانعاً خَضِراَ، أو طائراً غَرِداَ

من خلال هذه الأبيات، نجد البحتري استهل بالمديح بالإشارة إلى بعض مظاهر الطبيعة مثل نهر بردى، وجمال اللّيل في" داريّا"واتبع ذلك بمدح المتوكل ثم انتقل بعدها إلى وصف طبيعة دمشق الخلابة، حيث قطع السحاب تغطى جبالها وحيث الخضرة تنتشر في ربوعها والطيور تغرد على أفنانها.

وفي قصيدة مدح البحتري في الفتح بن خاقان*، يقول:[2]

عش حميدا ! فما نَدُمُّ زماناً جارُنا فيه فِعْلُكَ المحمُودُ

[1] البحتري: الديوان: مج2، ص ص709،710.

* دّاريا: من قرى الغوطة كانت أعظم قرى أهل االيمن بغوطة دمشق، وهي تبعد عن دمشق ثمانية كيلومترات جنوبا إلى الغرب.

** بردى: نهر دمشق.

* الفتح خاقان: من أولاد الملوك واتخذه المتوكل أخا، وكان يقدمه على جميع أولاده، يتميز بالذكاء والفطنة وحسن الأدب، كانت له خزانة كتب جمعها له علي بن يحي المنجّم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا.

[2] البحتري: الديوان، المصدر السابق: ص 722.

أخذتْ أمْنَهاَ من البُؤْسِ أرضٌ فوقهاَ ظلٌّ سيْبِكَ المِمْدودُ

ذهبتِ حِدَّةُ الشتاءِ، ووافاَ نا شبيهاً بك الرّبيعُ الجديدُ

أفُقٌ مشْرقٌ، وجوٌّ أضاءَت في سنا نورهِ اللّيالي السُّودُ

وكأنَّ الحوْذاَنَ والأقحُوانَ الـ غَصَّ نظْمانِ: لؤلؤٌ وفرِيدُ

سلك الشاعر في هذه القصيدة التي مدح فيها الفتح بن خاقان مسلكا جديدا، حيث وصف جمال الطبيعة من خلال مدح وعتاب.

لقد كان الربيع حاضرا في كثير من قصائد البحتري، لأنه فصل تتجدد فيه الحياة، تنمو فيه الكائنات ، تتفتح فيه الرياحين، تلبس الأرض حلّة مزينة بأحسن وأجمل الألوان، وتغرد الطيور بأعذب الألحان، فتسعد معها النفس، وطبيعي جدا أن يحتل الربيع هذه المكانة في قلب الشاعر، فهو القائل:[1]

هذا الرّبيعُ يسَدِّى* من زخارِفِهِ و شْياً يكاد على الألحاظِ يلتهبُ

فوشي الربيع يلتهب على ألحاظ الشاعر، وهي صورة تبرز شدة تعلق الشاعر بالربيع، وشغفه الكبير بقدومه.

- **الرياض:**

وصف البحتري جمال الرياض المنتشرة في بغداد وغيرها ومن ذلك وصفه لروضة زينتها الزهور على اختلاف ألوانها واكتست بالخضرة واجتذبت العيون لرؤيته. يقول:[2]

هذي الرياضُ بدا لطرْفِك نُورُهاَ فأرتْكَ أحْسن من رياط *السندس

ينشُرْنَ وشيًا مُذْهَبًا ومُدّبّجًا** ومطارِفًا نُسجتْ لغيرِ الملْبسِ

---

[1] البحتري: الديوان، المصدرالسابق: مج1، ص 339.

* سدّى: الثوب أقام سداه وهو ما مُدّ من خيوطه، وسدى الأرض: نداها.

[2] البحتري: الديوان ،المصدر نفسه:مج3، ص ص 1179، 1180.

* الرياط: جمع ريطة وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ونسجا واحدا.

** مدبج: المزين بالديباج الرقيق أو الحرير.

*** الغنج: الدلال.

وأرتك كافُوراً، وتِبْرا مشرقاً في قائمٍ مِثلِ الزُّمُرُّدِ أملسِ

مُتمايِلِ الأعناقِ ،في حركَاتِه كسَلُ النّعيم ،و فترةَ المتَنَفّسِ

فإذا طَرِبْتَ إلى العيونِ وغُنْجِها*** فأجِلْ لِحَاظَكَ في عيون النّرجس

لقد بدأ البحتري بوصف لوحته بتقديم صورة إجمالية آو كلية للرياض، وشرع بعد ذلك يفصّل ويستقصي ويتوقف أمام الجزئيات، فنرى الزهور و النّور الأبيض وقد بدا كالنسج الموشى الذي يفوق مرآة القطع الحريرية أو السندسية، وقد اختلفت ألوانها وتناسقت في نظام بديع فبدت كالنقوش في الثياب الفاخرة، « وما أن يضع البحتري أمام أعيننا هذه الصورة البصرية الزاهية الألوان لضروب النسيج والمطارف الموشاة حتى يضع أمامنا ألوانا من الأزهار والأشجار المنتشرة في أنحاء الروضة، كالكافور والأزهار الصفراء أو ذهبية اللون التي تحملها أعواد ملساء شديدة الخضرة كالزمرد، وقد تمايلت الأوراق والغصون كما تتمايل الأعناق تمايلا، كأنّها منعّمة أو مرهفة في حركاتها بفعل هبوب النسيم العليل»[1].

وهكذا يبني البحتري لوحته على أضرب من الصور كالصورة اللونية ،نجده يرسم لوحة أخرى لرياض الجزيرة يقول فيها[2]:

سرى البرق يلمع في مزنة تمدُّ إلى الأرض أشطانها*

فلا تسْألنْ باسْتواء الرّاما نِ وقد وافتِ الشمسُ ميزانها**

شبيبةَ لَهْو تلقّيْتُها فسايَرْتُ بالرَّاح ريْعَانها

ولا أرْيَحيَّةَ*** حتى تُرى طَروبَ العشيَّات نشوانَها

[1] فوزي عيسى، في الشعر العباسي، ص 170.

[2] البحتري: الديوان، مج4، ص 2175.

* أشطانها: وهو الحبل مطلقا، وقيل الحبل الطويل.

** ميزان الشمس: هو انتصاف النهار، ويقال: ميزان النهار.

*** الأريحيّة: خصلة يرتاح بها الندمى وهي الهشاشة لبذل العطايا.

هنا الشاعر بدأ بصورة البرق، ثم يواصل في وصف الرياض فيقول:[1]

وكم بالجزيرة من روضة تضاحك دجلة ثغبانها*

تريك اليواقيتُ منثورةً وقد جلَّل النَّوْرُ ظهرانها**

غرائب تَخْطَفُ لحظِ العيونِ إذا جلتِ الشّمسُ ألوانهَا

إذا غرّدَ الطّيرُ فيها ثنَتْ إليك الأغانيُّ ألحانَها.

تسيرُ العماراتُ أيْسارها ويعترضُ القصرُ أيمَانَها

وقد احتفى البحتري بوصف المياه واجتذبه نهر دجلة بصفة خاصة فوصفه في شعره، ووصف الحدائق التي تنتشر حول ضفتيه « وكان هذا في معرض وصف منزله بالعراق، فالتفت إلى اتساع النهر وامتداده، وجريان مياهه التي تشبه في نقائها الفضة المذابة والأمواج التي تبدو كالدروع فوق صفحته والنخيل المنتشر حول ضفتيه والقمارى التي تغني ويتردد غناؤها في جنباته »[2].

يقول:[3]

مَنْزِلٌ لي بالعراق اخْتَرتُه لم يشُبْ حَرُّ يقيني فيه شَكْ

وإذا " دِجْلَةُ" مدّت شأوْهَا وجَرَت جريْ اللُّجَيْنِ المنشبِكْ

عارضَتْ ربعي بفيضٍ مُزْبِدٍ بين أمْواجٍ تسامَى وحُبُكْ

يتكفّا* النخلُ في حافاتها بالقمارِى** تُغَنى أو تُبَكْ

حُنيت تلكَ العراجين على لُؤْلُؤٍ غَضٍّ و خوصٍ كالشُّرُكْ

---

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق، مج4، ص 2176.

* ثغبانها: جمع الثغب وهو الغذير يكون في ظل جبل لا تصيبه الشمس.

** ظهرانها: الظهران: جمع ظهر وهي خلاف البطن.

[2] فوزي عيسى في الشعر العباسي، ص 174

[3] البحتري: الديوان، مج3، ص 1564

ويرسم الشاعر في لوحة أخرى مشهدا من مشاهد الرياض التي أسرت قلبه، وقد كانت هذه الروضة التي استوقفته نتاج تلاقح بين الثرى والماء العذب، فيقول[1]:

ولازال مخْضرٌّ من الرّوض يانعٌ عليه بمُحمَرٍّ من النّوْر جاسدِ

يذكّرُ ريَّا* الأحبَّةِ كلَّماَ تنفس في جُنْحِ من اللّيل بارد

شقائقُ يحْمِلْنَ النّدى فكأنّهُ دموع التَّصابي في حدود الخرائِدِ**.

ومن لُؤلؤٍ في الأقحوان مُنظَمٍّ على نُكَتٍ مصفرَّة كالفرائدِ***

كأنّ جنى الحَوذانِ في رونقِ الضّحى دنانيرُ تِبْرٍ من توأمٍ وفاردِ

رباعٌ تردّتْ بالرياض مجودةً بكلّ جديدِ الماءِ عذبِ الموارِدِ

إذا رواحتْها مُزنةً بكرت لها شآنيب مجتازٍ عليها وقاصدِ

وقال يصف الرّقة البيضاء وما فيها من مناظر الطبيعة الخلابة:[2]

والمرجُ ممروجُ العراصِ مفوّق تزهى خزاماه على الحوذان

" والرقة البيضاء" *كالخوْدِ التي تخْتال بين نواعمٍ أقرانِ

من أبيضٍ يقق، وأصفر فاقعٍ، في أخضرٍ بهجٍ، وأحمرَ قانِ

ضحك البهارُ بأرضها، وتشققت فيها عيونُ شقائقِ النّعمانِ

---

يتكفا: يتكفأ محذوف الهمز أي يميد ويتمايل.

** القمارى: جمع القمري وهو ضرب من الحمام حسن الصوت.

[1] المصدر نفسه: مج1، ص ص 623 ، 624.

* ريّا: الريح الطيبة.

** الخرائد: وهي البكر، وفي الأصل أن الخريدة هي اللؤلؤة.

*** الفرائد: الجوهرة النفسية.

[2] البحتري: الديوان ، المصدر السابق: مج4، ص 2377.

* الرقة البيضاء: مدينة مشهورة على الغمرات على الجانب الشرقي منه بالقرب من حلب.

** يقق: الشديد البياض.

وتنفّست أنفاسُ كلّ قرارةٍ وتغنّتِ الأطيارُ في الأفنانِ

فكأنّما قطر السّحابُ على الثرى عطراً فأدكاهُ ذكاءَ بيانِ

هنا الشاعر يصف المناظر الطبيعية التي تحيط بالرقة حيث خيّل لنا أن جعل الرقة كالشابة الحسناء تحيط بها المروج الخضراء والزهور والجنان ذات ألوان متعددة، وكأنّ هذه الرياض تنفّست فعمت الأرجاء بروائحها، ومما زاد حسنا وجمالا تلك الطيور التي تغرد على أفنان الأشجار.

**– بطياس***

ونجد الشاعر يتغنى بطبيعة بطياس، يصفها في فصل الربيع وقد مر عليها خلال إحدى رحلاته فيقول[1]:

مررنَا على " بطياس" وهي كأنّها سبائبُ عصْبٍ أو زرابيُّ "عبْقرِ"*

كأنّ سقوطَ القطْرِ فيها إذا انثنى إليها سقوطُ اللؤلؤِ المتحدِّرِ

وفي أرجوانيٍّ من النّوْرِ أحمرٍ يُشابُ بإفْرِنْدِ** من الرّوضِ أخضرِ

إذا ما نّدىَ وافاهُ صُبحاً تمايلتْ أعاليهِ من دُرٍّ نثيرٍ وجوهرِ

إذا قابلتهُ الشّمسُ ردَّ ضياءَها عليها صِقالُ الأقحوانِ المنوّرِ

إذا عطفتهُ الريحُ قلتُ التفاتةٌ لـ " عَلوَةَ" في جاديِّها المتعصْفِرِ***

فالبحتري يرى بطياس وقد ارتدت أبهى حللها في فصل الربيع فندبت أشجارها كالذوائب ورياضها كالبسط الفاخرة المنسوبة إلى واد " عبقر" بالجزيرة، ويشبه البحتري حبات المطر المتساقطة عليها باللؤلؤ المتحدر، وتستوقفه ألوان الأزهار الزاهية فمنها الأرجواني الذي تحمله فروع خضراء كالإفرند السيف أو جوهره الموشي ومنها الزهر

* بطياس: قرية بباب حلب قال باقوت: " وأهل حلب كالمجمعين على أن يطياس من باب حلب"

[1] البحتري: الديوان ، المصدر السابق: مج2، ص ص 980 ،981.

* عبقر: زعموا أنه موضع بالبادية كثير الجن، وذكروا أنه موضع بالجزيرة كان يعمل به الوشي

** الإفرند: جوهر السيف ووشيه.

***المتعصفر: المصبوغ باللون الأصفر

الأبيض، وحين تساقط الندى عليه فجرا تمايل وبدت قطراته كالجواهر المنثورة، وإذ ضاجعته الشمس بأشعتها الذهبية، داعبها الأقحوان بلونه الملون.

## ب– الطبيعة الحية:

كان من مظاهر الطبيعة الحية ما مثلته من حيوانات، فأبدع البحتري في تصويرها مقدما لنا إياها لوحات فنية رائعة ممتدة عبر صفحات ديوانه الشعري، وقد بدت روعة تصويره خاصة فيما يتعلق بالحيوانات عامة ووصف الذئب والخيل والإبل خاصة حين وصفها وصفا دقيقا.

### –الذئب

لقد وصف البحتري ذئبا رآه في طريقه وهو يقطع الصحراء ليلا ودارت بينهما معركة حامية انتهت بمصرع الذئب، فيقول[1]:

سلام عليكم لا وفاءٌ ولا عهدُ أما لكم من هجر أحبابكم بدُّ؟

أأحبابنا قد انجز البين وعدهُ وشيكاً*، ولم ينجز لنا منكم وعدُ؟

أأطلاَلَ دار " العامرية"** باللوى سقتْ ربْعَكِ الأنواء ! ما فعلتْ هندُ؟

أدار اللّوى بين الصّريمةِ*** والحِمْى ! أما للْهوى إلاّ رسيسَ الجوَى قصدُ؟

بنفسي من عذّبت نفسي بحبّه وإن لم يكن منه وصالٌ ولا وُدُّ

حبيبٌ من الأحباب شّطت به النّوَى وأيُّ حبيبٍ ما أتى دونه البعدُ !

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج2، ص 740.

* وشيكا: سريعا.

** العامرية: نسبة إلى قبيلة بني عامر.

*** الصريمة: القطعة من معظم الرمل.

يتحدث الشاعر في المقدمة عن الهجر والقطيعة من حبيب قاس لا يبادله الوّد، فأغضبوه وأهاجوا مشاعره، فتوعدهم وافتخر بشجاعته وقوته فنجده يقول:[1]

إذا جُزْتَ " صحراءَ الغُوَيْرِ" مغرّباً وجَازتْكَ بطْحاءُ* « السَّواجير»**ياسعدُ

فقل لبني الضّحّاكِ مهلاً ! فإنّني أنا الأفعُوانُ ***الصِّلُّ والضّيغمُ الوردُ

بني « واصلٍ» مهلاً !فإنّ ابنَ أختكُمْ له عَزماتٌ هزْلُ آرائها جِدُّ

متى هِجتُموهُ لا تهيجوُ سوى الرّدى، وإن كان خِرقاً ما يُحلُّ له عَقْدُ

ويواصل البحتري واصفا هذه المعركة مع الذئب فيقول[2]:

وليلٍ كأن الصّبحَ في أُخرياتهِ رحُشاشةُ نصلٍ ضَمَّ إفرنْده غمدُ

تسَرْبلتُهُ والذئبُ وسنانُ هاجِعٌ بعين ابن ليل مالهُ باكرى عهدُ

أثير القطا* الكُدرى عن جثمانِهِ وتألفُنِي فيهِ الثّعالب والرُّبْد

ويمضي البحتري في سرد هذا المشهد مع الذئب ووصفه، فيقول:[3]

وأطلس ملء العين بحمل زوره وأضلاعه من جانبيه شوى نهدُ

له ذنَبٌ مثل الرَّشاءِ يجرّه فما فيه إلاّ العظم و الروح والجلدُ

طواه الطّوى حتى استمرّ مريره فَمَا فيهِ إلاَّ العَظْمُ والجِلدُ

يُقضْقضُ عُصلاً في أسرتها الرّدى كقضقضةِ المقرُورِ أرعده البردُ

---

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج2، ص 741.

* البطحاء: مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.

** السواجير: منبج نهر مشهور من عمل منبج بالشام.

*** الأفعوان: ذكر الأفعى.

[2] البحتري: الديوان، المصدر السابق:مج2، ص 742.

* القطا: جمع القطاة: طائرة في حجم الحمام.

[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

سَمالي وبي من شدّة الجوع ما به بِبَيداء لم تُحْسَسْ بها عِيشةٌ رُغْدُ

كلانا بها ذئبٌ يحدّث نفسهُ بصاحبه، والجدّ يتعسُهُ الجَدُّ

وهنا يرسم البحتري صورة لهذا الذئب الذي لاح له بلونه الأغبر المائل إلى سود (أطلس)، وقد أقبل لملاقاة البحتري للهجوم عليه، لكن الشاعر ألقى عليه سهم كالشهاب المنقض المضيء صوب الذئب في قوله[1]:

فأوجرته خرقاء تحسبُ ريشها على كوكبٍ ينقضُّ واللّيلُ مُسْوَدّ

فما ازداد إلا جرأةً وصرامةً، وأيقنتُ أن الأمر هو الجِدُّ

فأَتْبَعْتها أخرى فأضلْلتُ نَصْلَهاَ بحيْث يكونُ اللّبُّ والرُّعبُ والحقدُ

وتنتهي المعركة بمصرع الذئب ، وفيه نرى البحتري يجمع الحصى،ويوقد النيران ليشوي الذئب الصريع، ويأكل قطعة من لحمه يطفئ بها لظى الجوع، في قوله[2]:

وقمت فجمعت الحصى، واستويته عليه، وللرمضاء من تحته وقدُ

ونِلتُ خسيساً منه ثم تركته وأقلعت عنه وهو منعفرٌ فردُ

**– الأسد**

يصف البحتري معركة أخرى أكثر شراسة، وإن لم يكن طرفا فيها« وقد دارت رحاها بين الفتح بين خاقان وأسد، فصور ليظهر شجاعته وقوة بأسه ويمهد للمعركة بوصف الأسد»[3] فيقول:[4]

وما نقم الحسّادُ إلاّ أصالةً لديك وفعلا أريحياً مهذّبا

---

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق، مج2،ص 744.

[2] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، ص 209.

* مخدر: مستتر في عرينه.

** نهر بيزك: نهر حفره المتوكل ليروي حديقة الحيوان التي أنشأها.

*** المكثب: المطمئن بين الجبال.

[4] البحتري : الديوان، مج1، ص 199.

وقد جرّبوا بالأمسِ منك عزيمةً فضلتَ بها السّيفَ الحسام المجرّبَا

غذاة لقيتَ اللّيثَ، والليثُ مخدرٌ * يحدّدُ نابًا للّقاء ومخلبَا

يحصّنهُ من " ثهرِ النّيزكَ** معقلٌ منيعٌ تسامى غابهُ وتأشّبَا

يرودُ مغارًا بالظواهر مكثبا***، ويحتلُّ روضاً بالأباطحِ معشبَا

يلاعبُ فيه أقحوانا مفضَّضًا يبصُّ، وحوذانا على الماء مذهبَا

إذا شاء غادى عانةٌ، أو عدا على عقائل سربٍ، أو تقنّصَ ربربَا

فالبحتري يمهد بمشهد وصفي فيصوره، وهو مستر في عرينه يتأهب للإيقاع بفرائسه بأنيابه، ومخالبه، وقد أخذ ينتقل يذهب ويجيء واثقا مطمئنا بين الجبل أو على الوادي وحول الرياض المعيشة كالملك

ثم ينتقل البحتري إلى وصف المعركة الرهيبة بين الفتح والأسد فيقول:[1]

شهدت لقد أنصفته يوم تنبرِي له مصلتًا عضبًا* من البيض مِقضبا

فلم أر ضرغَاميْن أصدق مِنكما عِراكًا إذا الهبّابة النّكْسُ كذّبا

هِزَبْرٌ مشى يبغي هِزَبْراً**، وأغلبٌ من القوم يغشى- باسل الوجه- أغلبا

أدلّ بشغْبٍ ثم هالته صوْلةٌ رآك لها أمضى جنانا وأشغبا

فأحجم لما لم يجد فيك مطمَعًا وأقدَمَ لما لم يجدْ عنك مهربا

فالبحتري يصف استعداد الفتح بن خاقان للقاء الأسد حين تأهب بسيفه القاطع ويشهد للغريمين بقوة البأس والعزيمة، ويراها معركة بين ضرغامين فكلاهما يسعى للمعركة، بوجه فيه جرأة وبسالة، وقد صوّب كلاهما في

[1] البحتري: الديوان، المصدر االسابق: مج1، ص 200.

* العضب: السيف القاطع

** الهزبر: من أسماء الأسد

وجه غريمه ليدخل الروع في قلبه، وقد اضطرب الأسد حين شاهد صولة الفتح ورباطة جأشه، فاضطر للاندفاع نحو الفتح الذي حمل عليه بسيفه فصرعه.

**– الخيل**

لقد برع البحتري في وصف الخيل، وكان من أجود ما نظمه قصيدة نادرة يصف فيها حلبة خيل المتوكل،« وهي حلبة سباق كانت في منتهى قصر الخليفة من جهة الشرقية خلف السرداب، وكانت تمتد إلى مسافة خمسة كيلومترات ونصف، وكان هناك ثلاث حلبات أقدمها حلبة بيت الخليفة ويرجح أنها أنشئت في عهد المتوكل، ثم الحلبة الأخيرة وأنشئت في عهده أيضا»[1] فلنتأمل المقطوعة التي يصف فيها الخيل وهي تتأهب للسباق، يقول[2]:

يا حُسنَ مبدَى الخيل في بكورها تلوحُ كالأنجم في ديجُورها* !

كأنّما أبدع في تشهيرها مصوّرٌ حسَّنَ من تصويرها

تحملُ غِربانًا على ظهورِها في السّرْقِ** المنقوش من حريرها

إن حاذروا النَّبْوة ***من نُفورهَا أهْوَوْا بأيديهم إلى نُحورِها

كأنها والحبل في صدرورها أجادلٌ تنْهضُ في سُيورِهَا

مرّت تبَاري الريحَ في مُرورِها والشّمسُ قد غاب ضياءُ نورِها

في الرَّهج السآطع من تنويرِها حتى إذا أصْغتْ إلى مُديريهَا

---

[1] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، ص 209.

* ديجورها: الظلام

** السّرق: الشفق من الحرير الأبيض المنقوش

*** النّبوة: الارتداد

[2] البحتري: الديوان، مج2، ص ص 1043، 1044.

هكذا وصف الشاعر مجمع الخيل في الحلبة وما كان يجري فيها من رهان وسباق، فوصفها وهي تتأهب للرهان، وشبهها بالأنجم التي تضيء الظلام ووصف الفرسان السود وهم على ظهورها في قوله تحمل " غربانا"، وانحنوا بأيديهم على نحور الخيل حذرا من نفورها، وأشار إلى السروج الحريرية المنقوشة الموضوعة على ظهورها، ويصف انطلاقها في السباق، ويستعين بخياله ليجسد شدة سرعتها، فهي كالريح في سرعتها.

ويواصل البحتري في وصف هذه الخيول يقول:[1]

وانقلبت تهبط في حُدورِهَا تَصوُّبُ الطّير إلى وكُورِهَا

[في حلبةٍ تضحكُ عن بدُورِهَا] صار الرّجالُ شرُفا لسُورِها

أُعْطي فضل السّبق من جُمهورِها من فضل الأمّة في أمورها

تبهى به وهو على سريرها خِلافةٌ وُفِّق في تدبِيرِهَا

الشاعر يصف الخيول مازحا بمدح الخليفة، وكأنه يسقط صفات هذه الخيول وما تمتاز به من نجابة وأصالة على ذات ممدوحه.

ويعبر البحتري عن حبه للخيل لا سيما وهي تغير على الأعداء فيقول:[2]

فلم أر مثل الخيل أبقى على السُّرىَ ولا مثْلَنا أحْنى عليها وأشْفقَا

وما الحُسنُ إلا أنّ تراها مغيرةً تجادِبُنَا حَبلاً من الصُّبح أبْرقَا*

ومن أجود شعر البحتري، في وصف الخيل وإبراز صفاتها وجمالها، تلك اللامية التي نظمها في مدح محمد بن علي بن عيسى القُمّي الكاتب التي ابتدأها مقدمة غزلية مطلعها[3]:

أهلاً بذلكُمُ الخيالِ المقبِل فعلَ الذّي تهواهُ أو لمْ يَفعلِ !

---

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق : مج2، ص 1044

[2] المصدر نفسه: مج3، ص 1504.

* الأبوق : الحبل فيه لونان، وكل ما اجتمع فيه بياض وسواد

[3] المصدر نفسه، مج3، ص 1741.

برق سرى في بطنِ وجرةَ فاهْتدتْ بِسَناهُ أعناق الرِّكاب الظُّلَّلِ

ذلك أن الشاعر جعل الخيال كالبرق لإشراقه في مسَرّاه.

**– الفرس**

وللشاعر قصيدة، توجه فيها البحتري إلى ممدوحه ( أبي نهشل محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسي)، طالبا منه أن يهبه حصانا يعينه على رد كيد الأعداء، وراح يحدد نوعه وشكله، وتعداد أوصافه.

يقول[1]:

فأعِن على غزْوِ العدوِّ بمُنطوٍ أحشاؤه طيَّ الكتاب المُدْرجِ

إمّا بأشقرَ ساطعِ أغشى الوغَى منه بمثل الكَوكبِ المتأجج

مُتَسرْبِلٍ شيَةً طَلَتْ أعطافَهُ بِدم فما تَلقاهُ غيرَ مضَرَّجِ

أو أدهمٍ صافي السّواد كأنّهُ تحت الكمىِّ مُظهّرٌ بِيَرَنْدَجِ*

ضرمَ يَهيجُ السّوطُ من شُؤْبوبِه** هَيْج الجنائِب من حريق العرفجِ***

خفّت مواقعُ وطئِه فلو أنّهُ يجري برملةِ "عالِج" لم يُرهِجِ

أو أشهبٍ يققٍ يضيء وراءَهُ متنٌ كمتْنِ اللُّجة المترجرجِ

هنا الشاعر يشير إلى الصفات التي يتحلى بها الفرس الذي أعدّ للغزو، فهو إما أشقر ساطع يغشى الوغى كالكوكب المتأجج متسربلا سرجا وموشى حسن الألوان، وقد صبغت جوانبه بدماء العدو، وإما أن يكون أدهم صافي السواد كأنه مصبوغ باللون الأسود بصبغة تسمى اليرندج، شديد الاندفاع، يغضبه ويهيجه السوط، وتزيد

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج1، ص ص 402، 403

* اليرندج: لفظة فارسية، أصلها " رندخ" قيل هو جلد أسود.

** الشؤبوب: شدة الاندفاع.

*** الغرفج: ضرب من النبات، طيب الريح.

ريح الجنوب نيران شجر العرفج اشتعالا و إما أن يكون أشهب شديد البياض في لونه، سواد وبياض إلى غير ذلك من الصفات.

## ثانيا: المظاهر الحضارية

وكما تغنى البحتري بالطبيعة الحية والميتة، نراه قد تغنى بوصف « الطبيعة الصناعية ممثلة في وصف قصور الخلفاء والأمراء، كانت له قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران، بما أتيح له من دقة في التصوير والتعبير، ولم يكد يترك قصرا بناه المتوكل دون آن يصفه موجزا أو مسهبا»[1]، ومن القصور التي أجاد في وصفها:

### – القصر الكامل

وهو القصر الذي بناه المعتز وفيه يقول:[2]

ذُعرَ الحمام وقد ترنّم فوقه ... من منظرٍ خطرٍ المزلَّة هائلُ

رُفعت لمنخرقٍ الرّياحِ* سُمُوكه ... وزهتْ عجائبُ حُسنهِ المتخايِلِ

وكأنّ حيطان الزّجاج بجِوّه ... لُجَجٌ يمُجْنَ على جنوب سواحلِ

وكأنّ تفويف**الرّخام إذا التفى ... تأليفهُ بالمِنْظَرِ المتقابلِ

حُبُكُ الغمامُ رُصِفْنَ بين مُنمَّرٍ، ... ومسيّر، ومُقاربٍ، ومشاكلٍ

لبِستْ من الذّهب الصّقيل سقوُفُه ... نورا يضيء على الظّلام الحافِلِ

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1986م، ص 295.

[2] البحتري: الديوان، مج3، ص ص 1648، 1649

* منخرق الرياح: مهبها.

** تفويف: ما يبدو من الرخام من خطوط بيض تشبيها بالثياب.

هنا الشاعر بدأ قصيدته بمدح الخليفة المعتز، ثم انتهى إلى وصف قصره الكامل، وصور لنا الحمام فوق القصر تترنم، وصور لنا جدرانه الزجاجية، ويبرز تموج المياه على جنوب السواحل، وكأنّ البقع الذي يكسو جدرانه وحيطانه أشبه بطرائق السحب ذات البقع المختلفة الألوان، وكأن سقوقه الذهبية أشعة الشمس المضيئة.

## – بركة المتوكل

تعد قصيدة البحتري في وصف بركة المتوكل من درر شعره، وقد أبدع في وصفها وتصويرها، فقال[1]:

يا مَنْ رأى البركة الحسناء رؤيتَها والآنسات إذا لاحتْ* مغانيها

يحسبها أنّها من فضل رتبتها تُعدُّ واحدةً، والبحر ثانيها

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها في الحسن طوْراً، وأطوارا تباهيها

كأنّ جِنّ «سليمان» الذّين ولوُا إبداعَها فأدقّوا في معانيها

فلو تمرُّ بها «بلقيس»** عن عُرُض قالت: هي الصّرحُ*** تمثيلا وتشبيها

نلاحظ من خلال هذه الأبيات نوع من التأمل والنظر بعناية للجمال، ولعلّ البحتري في كثير من وصفه يقف متأملا أمام المظاهر سواء كانت طبيعية أو حضارية.

هنا البحتري وقف على جمال البركة وحسنها، وبالغ في وصف جمالها مبلغا عظيما وكأنها من إبداع الجن، جن سليمان هم الذين قاموا بصنعها وأبدعوا فيها، وافتنوا في تحسينها حتى لو شاهدتها " بلقيس" ومرت بها لخالتها الصرح في التمثيل والتشبيه.

---

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق:مج4، ص ص 2416،2417

* لاحت: نظرت

** بلقيس: ملكة سبأ

*** الصرح: القصر: الذي بناه سيدنا سليمان لبلقيس، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى:«قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ »سورة النمل الآية 44.

ويستمر البحتري في وصفه للبركة، فيرينا كيف تتدفق المياه عليها من جهات مختلفة، فيقول:[1]

تنحطُّ فيها وفود الماء مُعْجلَةً كالخيل خارجةً من حبلِ مُجريها

كأنّها الفضّةُ البيضاءُ سائلةً من السَّبائكِ تجْري في مجاريهَا

إذا علتها الصّبا* أبدت لها حُبُكا مثل الجواشن** مصقولا حواشيها

فرونقُ الشّمس أحيانا يضاحِكُها وريّق الغيث أحيانا يُباكيها

إذا النّجُوم تراءَت في جوانبها ليلا حسِبت سماءً رُكّبت فيها

لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها

وينتقل البحتري بعد ذلك إلى وصف انصباب المياه من النهر إليها وكأنها خيل تتدافع في حلبة سباق، ثم تسيل وكأنها سبائك فضة، ثم لا تلبث أن تتماسك فالشاعر يصف هبوب الرياح الصبا الرقيقة وهو يضرب صفحة الماء فيرسم عليها تموجات مكسرة فيجعلها كالدروع، بينما تظل جوانبها مصقولة لامعة وقد أخذت الشمس تضاحكها وترسل أشعتها الذهبية على صفحتها، وفي أحيان أخرى ينهل عليها المطر الصافي فكأنه يباكيها.

ويلتفت أيضا إلى مشهد انعكاس النجوم على صحفتها ليلا حتى ليخيل للرائي أن سماء ركبت في أعماقها، ويقف أمام منظر الأسماك وهي تتسابق فيها فلا تستطيع إدراك بدايتها ونهايتها.

هكذا أجاد البحتري في تصوير إعجابه بالبركة، وقد بهرت القصيدة النقاد من القدامى والمحدثين، وصفها مصطفى الشكعة بأنها« عروس قصائد البحتري في وصف الطبيعة»[2] وقال : « إن هذه القصيدة لفرط رقتها

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج4، ص ص 2418،2417.

*الصبا: ريح خفيفة كالنسيم.

** الجواشن: الذروع.

[2] مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص 717.

وفيض موسيقاها وغامر عذوبة ألفاظها، وإشراق أسلوبها ونقاء قوافيها مع ما انتظم عقدها من صور بهيجة قد أصبحت سمة لمدرسة البحتري في الشعر عامة وفي الطبيعة خاصة»[1].

## – إيوان كسرى

تعد سينية البحتري من أروع ما في الشعر العربي، وقد نالت إعجاب النقاد من قدامى ومحدثين، فقال ابن المعتز « ليس للعرب سينية مثلها[2]، وعدّها شوق ضيف من روائع الشعر العباسي[3] ووصفها الدكتور مصطفى الشكعة بأنه « تعد فريدة في بابها براعة وصف ورقة حس، وينبوع لسحر، وإعجاز شعر»[4]

وعدها « من معالم شعره ونفيس قصائده، وثمين فرائده»[5]ووصفها أنيس المقدسي بأنها« من عيون الشعر العربي»[6]، وقال عنها محقق ديوان البحتري حسن كامل الصيرفي إنها:« أجل قصيدة في الشعر العربي وتعد بحق من آيات الشعر الخالد»[7] وأنها زحزحت ذلك الحد الدقيق الذي يفصل بين الفحولة والعبقرية.

وهذه القصيدة وقف فيها البحتري واصفا إيوان كسرى بالمدائن يقول[8]:

صنت نفسي عمّا يدنس نفسي وترفّعت عن جدا كل جبسِ

وتماسكت حين زعزعني الدّهـ ـر التماساً منه لتعسي ونَكْسي

بلغٌ من صُبابة العيش عندى طَفّفتها الأيّامُ تطفيف بخسِ

وبعيد ما بين واردٌ رفهٍ عللٍ شربه، وارد خمسِ

وكأنّ الزمان أصبح محمؤ لاً هواه مع الأخسِّ الأخسِّ

[1] مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص 720.

[2] محمد بن يحي الصولي: أخبار البحتري، تحقيق وتعليق صالح الأشقر، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، د ط، 1958م، ص 72.

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص 292.

[4] مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص 724

[5] المرجع نفسه: مج2، ص 725.

[6] أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملاين، بيروت، لبنان، ط 17، 1989م، ص 256.

[7] البحتري: الديوان، مج2، ص 1152.

[8] المصدر نفسه:مج2، ص ص 1152، 1153.

واشترائي " العراق" خطة غبنٍ بعد بيعي " الشام" بيعة وكسِ

لا تروني مزاولا لاختباري بعد هذى البلوى فتنكر مسّي

نلاحظ أن الشاعر يقف أمام إيوان كسرى حزينا خاشعا، متأملا وقد خلصت نفسه من دنس المادة ورجس الأحياء، وشغلها تأمل الأثر عن كل ما حولها في عالم الحس والمادة وأغناها الأثر المعنوي فرضي بالعيش الطفيف، وفضل الفقر على الغنى المشبوه الذي يتأتى من لوم المصدر وخسة أصحاب التصرف، « وهو وصف للحيان واللئيم والفاسق والثقيل الروح وكأنه يرى أن كل من مدحهم تنطبق عليهم تلك الصفات، وكان البحتري استهل قصيدته بالمصالحة مع الذات وكأن وقفته أمام الأطلال الكسروية أزالت الغشاوة من حول عينيه، ووضعت أمامه الحقيقة المجردة ونبهته إل أنه أخطأ في حق نفسه حين أراق ماء وجهه أمام ممدوحه بدافع الملق والنفاق والمال»[1]، ولكنه اكتشف في وقت متأخر وبعد أن بلغ الشيخوخة أنه دفع ثمنا باهظا من كرامته وأحس أنه خسر ذاته وانغمس في حماة الدنس، فقد مدح من لا يستحقون المديح، وتقلب في مواقفه من أجل إرضاء ممدوحه.

## – قصر الزّوّ

ومما يصور الشاعر ما بلغه العباسيون من تحضر وترف وبذخ تلك القصور العائمة أو المتحركة فوق صفحة النهر، وقد بلغت من الضخامة مبلغ كبيرا، « لقد بنى المتوكل واحدا من هذه القصور المتحركة العائمة اصطلح على تسمية بـ **الزّوّ**، وهذا القصر بلغ من الضخامة مبلغا كبيرا، ومن تكاليف الإنشاء مبالغ خيالية»[2].

كان ينساح على صفحة دجلة حينا والقاطول حينا آخر، وقد استعمله الخلفاء في أيام الفراغ والشراب والقصف والصيد، إنه أقرب ما يكون شبيها بـ" الذهبيات" التي ترسو على ضفاف النيل في القاهرة في أيامنا هذه والتي تنساح على صفحته متى أراد أصحابها السفر بها أو التحرك مع فارق الحجم والضخامة والفخامة»[3].

[1] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، ص ص 214-215.
[2] المرجع نفسه: ص 192.
[3] مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص 72.

ويصف البحتري هذا القصر النهري الضخم فيقول:[1]

أبي يومنا **بالّزوّ** إلا تحسنًا لنا بسماعِ طيّبِ ومدامِ

غنينا على قصر يسيرُ بفتيةٍ قعودٍ على أرجائهِ وقيامِ

تظل البزاة البيض تخط حولنا جآجئَ طيرٍ في السَّماء سوامِ

تُحَدّر بالدُّراجِ من كلِّ شاهِق مخضَّبةُ أظفارُهنَّ دوامِ

فلم أرَ كالقاطول يحمل ماؤُه تدفُّقَ بحرٍ بالسَّماحة طامِ

ولا جبلاً كالزَّوّ يوقف تارةً وينقادُ إمَّا قُدتَه بزمامِ

فالبحتري يصف نزهة نهرية في هذا القصر العائم تخللها الشراب والغناء والصيد، حيث تقوم الصقور البيض بالإيقاع بفرائسها فتسقط في مخالبها وبين أظافرها التي خضبتها الدماء بينما يتهادى القصر النهري الذي يشبه الجبل في ضخامته.

« ويصف البحتري هذا القصر العائم مرة أخرى ساخرا من فرعون مصر لأنه برغم كنوزه لم يمتلك قصرا مثله، ولو رآه لصغر في عينيه ملكه، ويصف القصر وهو يتهادى على صفحة النهر غاديا رائحا في رحلة صيد على ضفافه تارة ومن السماء تارة أخرى»[2]: يقول:[3]

تَعَجَّبْتُ مِنْ فِرْعَونَ إذا ظَنَّ أنّه إله لأنَّ " النيل" من تحته يجري

ولو شاهد الدّنيا وجامع ملكها لقلّ لديه ما يكثر من " مصرَ"

ولو بصرت عيناه ب*"الزو" لازدرى حقير الذي نالت يداه من الأمر

---

[1] البحتري: الديوان، مج3، ص ص 2001،2002.

[2] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، ص 193.

[3] البحتري: الديوان، مج2، 1053.

* الزّوّ: جبل بالعراق قال الفيروز أبادي في المحيط: "والزّوّ.... سفينة عملها المتوكل".

الحفاف: الجانب.

إذا رأى قصرا على ظهر لجة يرُوحُ ويغدُو فوق أمواجها بجري

تصادُ الوحوشُ في حفافي طريقهِ وتستنزل الطير العوالي على قسرِ

## – قصر الدكة ( السَّاج)

كان في الحدود الشمالية لساحة الحير قصر يسمى بالدكة، وكان هذا القصر «يقع على ضفة نهر القاطول الكسروي اليمني في شرقي تل العليق، وكان أمامه بركة مدورة تستمد مياهها من فرع خاص يتشعب من قناة سامراء ويرجح أن يكون قصر الدكة الذي كان يعرف باسم " **قصر السَّاج**" بدليل أن البحتري لما وصف هذا القصر أشار إلى نهر كان يبدأ من قرب قصر الجعفرى وينتهي عنده»[1]، وقد وصف البحتري هذا القصر أنه يقع في ساحة خضراء مليئة بالأشجار المورقة والمزهرة والمثمرة، يقول البحتري واصفا قصر الساج والنهر[2]:

شجرٌ على خضر ترفٌ غصونه من مزهرٍ أو مثمرٍ أو مورقِ

وكأن " قصر السّاج " خلةُ عاشقٍ برزت لوامقها بوجه مونقِ

قصرٌ تكامل حسنه في قلعةٍ بيضاء واسطةٍ لبحرٍ محدقِ

ويواصل في وصف النهر فيقول[3]:

نهرً كأنَّ الماَء في حجراتِهِ إِفْرِنْدُ متنِ الصَّارمِ المتألِّقِ

[1] أحمد سوسة: ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1948م، ج1، ص ص 123،124.

[2] البحتري: الديوان، مج3، ص 1483.

* الوامق: المحب.

المونق( المؤنق): معجب، وهو من الفعل ( أنق).

[3] المصدر نفسه: مج3، ص1485.

## المبحث الثالث: بواعث وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة

إن علاقة الشاعر بالطبيعة في الأندلس علاقة إلف ومحبة العلاقة صراع ومغالبة، شعراء وغير شعراء- أقبلوا يشاركونها بهجتها في كلف شديد بجمالها، فأدى ذلك إلى بروز ظاهرة جديدة في شعر الطبيعة هي اتخذ الطبيعة مقصفا وملهى يستكملون في رحابها متعتهم ونشوتهم التي يبتعثها في نفوسهم، ومن يطالع ديوان ابن خفاجة يقف مطمئنا على أنه لا يوجد من ينازعه في عشقه للطبيعة، وهذا أثر بوضوح في أدبه فاحتل مقاما عاليا يعود رغبة طبيعة لدى الشاعر الذي تربت أذواقه على محبته الطبيعية والتغني بها، وهذا يعود إلى عاملين مؤثرين جعلا ابن خفاجة يبدع بصورة رائعة في هذا الفن ويتمثل هذان العاملان في:

### أولا: الباعث الطبيعي

لقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس، فتعلق بها الأندلسيون، فهذا ابن خفاجة ابن الأندلس بعامة وابن الطبيعة بخاصة أقبل يسرح النظر في جمالها، ويستمتع بمفاتنها وأخذ ينظم كلامه في وصف رياضها ومباهج جناتها وبعد أن فتحت في نفوس الشعراء، قول الشعر، وجعلتهم يرون فيها كما يقول ابن خفاجة[1]:

يا أهلَ أندلسِ لله درّكمُ؛ ماء وظلّ وأنهارٌ وأشجارُ

ما جنّةُ الخلد إلا في دياركمُ؛ ولو تخيّرتْ هذا كنت أختارُ

لا تخشوا بعدد أن تدخلوا سقراً* فليس تدخل بعد الجنّة النّارُ

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة، الديوان ، شرح وضبط، عمر فاروق الطباع، دار القلم لطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت،لبنان، د ط، 1994م، ص 113

* السقر: من أسماء جهنم

يعقب د/ جلال حجازي على هذه الأبيات بقوله: « وحق لابن خفاجة أن يهتف بما قال فطبيعة الأندلس بين طبائع البلدان كطبيعة الربيع بين الفصول والأيام، صاغها الله آية رائعة من فرائد آياته، ومثلا ناذرا من بدائع آثاره فجاءت كما يشاء الفن الرفيع الآسر: عروس الكون، وغرة الأوطان، وفتنة الآفاق، دمية الحس، ومنية النفس، وريحانة الحياة، وأغنية الوجود »[1] ولأن ابن خفاجة كان يمتع بهذه الحياة الهادئة الرغدة الأمر الذي ساعده كثيرا على أن يعيش هذه الحياة المتألمة المعجبة بجمال الطبيعة وفتنها التي يحيا بين ربوعها فهو ابن الأندلس قد ملأت عليه الطبيعة حياته.

إن هذا الجمال الطبيعي الذي تميزت به الأندلس كان محفزا وسببا لقريحة الشاعر الذي تغنى بمفاتنها ومشاهدها فقلد حبا الله الأندلس بخصائص وملامح جعلت ابن خفاجة أشد التفات إليها، الذي « أخذ يلمح في البساتين والرياض والأنهار والجداول والينابيع والجبال والسهول فأعجبه كل ما تنبت الأرض من شجر ونبات وخصوصا تلك الأزاهير وألوان الورد البديع الحسن الرائق المنظر»[2]، فوصف كل مواطن الجمال وعدت الطبيعة موضوعا مهما من موضوعات ابن خفاجة وبذلك « أدركنا سر الترابط الذهني بين لفظة الأندلس وبين ما تثيره في نفوس سامعيها من آفاق مخضرة موشاة بروعة طبيعة وجمال بيئي»[3]، فشغف ابن خفاجة بالطبيعة يرجع إلى أن جزيرة شقر كانت داره ومنشأه وقراره فهي مدينة صغيرة غنية بالمناظر الرائعة ذكرها ياقوت الحموي في معجمه فقال عنها [4]:

" جزيرة في شرقي الأندلس وهي أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجر وماء"

[1] مصطفى السيوفي : تاريخ الأدب الأندلسي، الدار الدولية لاستثمارات الثقافية، القاهرة، مصر، ط1، 2008م، ص 311

[2] محمد مجيد سعيد: الشعر في عصر المرابطين والموحدين، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 2000م، ص 65

[3] المرجع نفسه: ص 290.

[4] زين كامل خوسي: من الأدب العباسي والأندلسي، دراسات ونصوص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د ط، 2006م، ص 65.

وعليه فعامل الطبيعة الساحرة أثّر بشكل كبير في إبداع ابن خفاجة الذي تفنن كثيرا في وصف الطبيعة، وكأنه فنان يبدع بريشته.

فقد شخص الطبيعة فرسم مناظرها وصورها تصويرا بألوان شعره ولغته وأخليته.

**ثانيا: الباعث النفسي**

إن جمال الطبيعة في الأندلس، لم يكن وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة، بل إن الحياة التي عاشها الشعراء كانت سبيلا لهذا الازدهار، فالأحوال النفسية التي فطر عليها الإنسان من حب وحزن وخوف ولحظات النجوى تساعد الشاعر على قول الشعر والمزج بين الحب والطبيعة والطرب وهو إحساس جميل« فقد جعل من نفسه المثال الذي يعالج من خلاله مواقفه من الدنيا والناس؛ ويتحسر على ملفات من زمانه حين كانت الدنيا تغازله أو تشده إليها وإن لم يستجيب إليها»[1].

كما يمكننا أن نضيف إلى ما تقدم عنصرا آخر يعتبر في بعض الأحيان مصدرا مهما لشعر الطبيعة وهو عنصر الشوق والحنين إلى الأوطان، فالشاعر يتذكر أيامه وليليه، غابرة في مدينته أو في وطنه البعيد فلا يمكنه أن يفصل البيئة عن ذاكرته، بل قد يقصر لهفه وشوقه على استرجاع صور تلك المناظر الجميلة.

فابن خفاجة يقف متأملا أحيانا في الطبيعة مخاطبا إياها وهو كما يقول الدكتور فوزي عيسى:« إنه قد اعترته الوحشة في آخريات حياته التي تجاوزت الثمانين وقد انعكس هذا الإحساس على نظرية للطبيعة في تلك الفترة من حياته ففارقته روح المرح التي صدر عنها أوصافه لها، وتحول موقفه منها من البهجة والبشر إلى التأمل»[2]

[1] محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 2000م، ص 91

[2] زين كامل خويسكي: في الأدب العباسي والأندلسي، ص 95.

كما دفعه الإحساس بالقلق والخوف من الموت اللجوء للطبيعة، وهذا الشعور والإحساس الذي تملّك قلب الشاعر جعله يقع فريسة للاضطراب النفسي الذي كان النفسي الذي كان يمزق داخله، فقد استعان بالطبيعة كالجبل مثلا هروبا من شبح الموت المخيف فارتاح الشاعر حين بكى ووجد في أخيه خير عزاء.

بالإضافة إلى هذه البواعث هناك عوامل أخرى زادت من ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس كانتشار مجالس الأنس والطرب التي أوحت للشعراء بشعر غزير عبروا من خلاله عن حبهم ولهوهم وأشواقهم.

ومن ثم تبقى كل المحاسن التي حبا الله بها بلاد الأندلس هي في الواقع المرجع الأول الذي استلهم منه شعراء الأندلس من بينهم الشاعر ابن خفاجة الأندلسي.

## المبحث الرابع: تجليات وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة

لقد منح الله الأندلس طبيعة ساحرة خلابة، فأحاطت بها البحار وكثرت الأنهار وانتشرت الرياض والحدائق أو المتنزهات" وقد عاش سكانها وسط هذه الحقول والسهول التي كانت تزركشها الخضرة والحمرة والصفرة وسائر ألوان الأزهار والأنوار فعاشوا خلال هذه الطبيعة الرائعة، الخلابة التي فتنت الشعراء الأندلس، فأحبوها وتعلقوا بها وبرعوا في وصفها في لوحات شعرية أخاذة"[1].

ومن الشعراء الذين تعلقوا بالطبيعة الأندلسية، ابن خفاجة وكانت جزيرة شقر مسقط، رأسه تنعم بالجمال، فقد وصف الشاعر أشياء كثيرة مما يقع تحت نظره، وخصص للوصف قصائد ومقطوعات متفرقات في الديوان، فكان يعمد إلى المقطوعات القصيرة لوصف مشهد قصير، أو صورة دون تطويل، كان متأثرا بشعراء المشرق ومحاكاته لهم.

[1] فوزي عيسى: في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 2008م، ص 11.

وتجلى وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة على وجوه عدة واتخذ اهتمامه بها واتكاءه عليها أشكالا مختلفة.

## المبحث الرابع: تجليات وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة

### أولا: المظاهر الطبيعية

#### أ- الطبيعة الميتة

#### - الجبل

لقد اشتهر ابن خفاجة بوصفه الشهير للجبل وهو مظهر من مظاهر الطبيعية في الأندلس، هام في حسنها، وكان خياله الشعري يتتبع ذلك الجمال المنتشر، فيصور تلك المناظر الفاتحة كما يشاء

ويضفي عليها ذلك الإحساس الرقيق، مبينا ومضات الجمال التي تموج بها تلك الطبيعة الرائعة، فقصيدة الجبل رسم فيها ابن خفاجة لوحة فنية، وهي أية في الإبداع يجد فيها القارئ متعة.

فيقول:[1]

بعيشك هل تدرى أهوجُ الجنائب تخُبُّ بِرحلي، أم ظهورُ النجائبِ*

فمالحتُ في أُولى المشارق كوكبًا، فأشرقتْ، حتى جئتُ أخرى المغاربِ

وحيدًا تهادني الفيافي، فاجتلِي وجوهَ المنايا في قناعِ الغياهبِ

[1] إبراهيم بن آبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص 47

* النجائب، النوق الكريمة.

ولا جارَ إلاّ من جسامٍ مصمّمٍ ولا دارَ إلاّ في قتودِ الرّكائبِ

ولا أنُسَ إلاّ أن أضاحِكَ ساعةً ثغورَ الأمَاني في وُجوهِ المطالبِ

وليْلٍ، إذا ما قلتُ قد بادَ فانقضى، كشّف عن وعدٍ من الظّنِ كاذبِ

هنا يصف شاعر رحلته وما تلقاه من متاعب وما صادفه من أهوال وهو وحيد لا رفيق ولا أنيس في وحشته، إلاّ النجوم التي تنير طريقه بانتظار بزوغ الفجر وإشراق النهار وفي هذا يقول:[1]

سحبت الدّياجي فيه سود ذوائبِ لأعتنقَ الآمالَ بيضِ ترائب

فمزّقتُ جيب الليل عن شخص أطلسٍ* تطلّع وضّاح المضاحكِ قاطبِ

رأيت به قطعًا من الفجرِ أغْبشَا، تأمَّل عن نجمٍ توقّد ثاقبِ.

ثم ينتقل ابن خفاجة للحديث عن الجبل ووصفه، وقد منحه صفات الإنسان، فصوره في صورة شيخ وقور الذي يتجلى بعامته السوداء ذات الذوائب الحمر، فيقول: [2]

وأرعنَّ* طمّاحٍ الذُؤابة** باذخٍ، يطاول أعنانَ السّماء بغاربِ

يسدُّ مهبَّ الرّيحِ عن كلّ وُجهةٍ ويزحَمُ ليلا شُهبَه بالمناكبِ

وقور على ظهر الفلاة، كأنّه، طوال اللّيالي مفكرٌ في العواقبِ

[1] إبراهيم بن آبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، المصدر السابق، ص 48

** الأطلس: الذئب الأغبر المائل إلى السواد

[2] المصدر نفسه: ص 47

* أرعن: الجبل ذو الرعان الطويل

** الذؤابة: من كل شيء، أعلاه وهنا قمة الجبل

يلوث عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ لها، من وميضِ البرق حمرُ الدوائبِ

« لقد انعكس الإحساس على نظرته الطبيعة في تلك الفترة من حياته فارقته روح المرح التي صدر عنها في أوصافه لها. وتحول موفقه منها من البهجة والبشر إلى التأمل وطول النظر»[1]، فالشاعر هنا يواصل الحديث عن خبرته الطويلة من الحياة وعما مر به من أحداث، فحديثه مليء بالحكمة إذا كان يراقب الذاهبين والعائدين في الصحارى دون عودتهم، فهو يبكيهم، يتألم ويأسى لبؤس البشر ويرحل عن أحبابه، ويبقى وحيدا يواجه متاعب الحياة، ويفكر في مصير البشر، ثم يصف الجبل، فالرياح تلاطمه، والبحار تزاحمه، ثم ينتقل للحديث عن نوح الأشجار، حيث يقول:[2]

أصختُ إليه، وهو أخرسُ صامتٌ فحدّ ثَني ليلُ السُّرى بالعَجائبِ

وقال: ألاكم كنتُ ملجأَ قاتلٍ، وموطِنَ أَوّاهٍ تبتُّلَ تائبِ

وكم مرّ بي مدلجٍ ومُؤَوّبٍ، وقال بظلّي من مطيّ وراكبِ

ولا طَمَ من نُكبِ الرّياحِ معاطفي، وزاحَمَ من خضر البحارِ غَوارِبي

فما كان إلاّ أنّ طوتهُم يدُ الرّدى، وطارتْ بهم ريحُ النّوى والنّوائبِ

فما خفقُ أيكِي غير رجعةِ أضلُع، ولا نوْحُ وُرقِى غير صرخةِ نادبِ

وما غيَّضَ السُّلوانُ دمعي، وإنّما نزَفتُ دموعي في فراقِ الصّواحبِ

[1] فوزي عيسى: في الأدب الأندلسي، ص 181

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص 48.

* المدلج: السائر ليلا.

** المؤوب: العائد

*** الغوارب: جمع غارب، الظهر

** ورقت: الحمائم، جمع ورقاء

وفحتّى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودعُّ منه راجلاً غير آيِبِ؟

وحتّى متى أرعى الكواكبَ ساهرًا؟ فمن طالعٍ أخرى اللّيالي وغاربِ؟

ثم يلتفت الشاعر اتفاتة تحرك المشاعر، وتهز الوجدان في قوله:

أدعوك ربي دعوة متضرع، فهو يرفع يديه إلى المولى جل جلاله طالبا منه الرحمة وأن يخفف عنه ما آلت إليه حالته، فيقول:[1]

فرحماك يا مولايَ دعوةَ ضارعٍ يمدُّ إلى نعُماك راحة راغبِ

فاسمعني من وعظهِ كل عبرةٍ، يترجمُها عنه لسانُ التَجاربِ

فسلّي بما أبْكي، وسرّى بما شَجا، وكان على عهد السُّرى خير صاحبِ

وقلتُ، وقد نكَّبتْ عنه لطيّةَ: سلامٌ، فإنَّا من مُقيم وذاهبِ.

هكذا ينتهي حديث الجبل بتنفيس هموم الشاعر وأن بكاؤه كان تسلية له.

## -الروضيات

إن الوصف عند الأندلسيين قد شمل كل شيء وطرق كل ما وقع تحت السمع والبصر لاتساع مجال الخيال لديهم، ووفرة مادة المشاهدات في بيئتهم؛« لذلك لم يدع شعراؤهم جليلا ولا حقيرا ولا مبتذلا ولا عظيما، ولا مظهرا من مظاهر الطبيعة ومناظر الكون إلا وصفوه بعذب شعرهم ورسموه رسما جليا»[2]

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص 49

[2] عبد العزيز عيسى: الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، د ط، 1936م، ص 118.

فالشاعر حين يعمد إلى وصف الرياض والبساتين فإنه كالرّسام يستحضر في كلماته الألوان وأدوات الرسم، ويبدأ في نسج ما يراه لوحة براقة متألقة يعكس فيها كل تفصيل يراه حوله في الطبيعة. « وقد شغلت الروضيات مساحة واسعة في الشعر الأندلسي، وذلك لاهتمام الأندلسيين بالفلاحة والزراعة وحرصهم على الإكثار من الحدائق والبساتين، لاسيما على ضفاف الأنهار»[1] والشاعر لا ينفصل غالبا عن لوحة الروض فكانت هذه الحدائق تملأ النفس بما فيها من أشجار وثمار وأزهار مختلفة.

ويرسم ابن خفاجة صورة أخاذة لروضة باكرها والغيوم كقطع العنبر المتوجهة وقد أومض البرق كلفحة النيران وأرعدت السماء تأهبا لهطول المطر، ويخلع على صوره ظلالا حسية ويمنح الطبيعة صفات المرأة فيقول:[2]

ومجرِّ ذيلِ عمامةٍ لبست بهِ، وشيَ الحَبابِ، معاطفُ الأنهارِ

خفقَت ظِلالُ الأيكِ فيه ذوائبًا، وارتجَّ ردفًا مائجُ التّيارِ

ولَوى القضيبُ هناك جيدا أتلعًا، قد قبَّلتهُ مياسمُ النُّوّارِ

باكرتُه والغيمُ قطعةُ عنبرٍ، مشبوبةٌ والبرقُ لفحةُ نارِ

والريّح تلطمُ فيه أردافَ الرّبى لعبًا وتلثِمُ أوجُهَ الأزهارِ

ومنابر الأشجار قد قامت بها خطباء مفصحة من الأطيار

ويمضي ابن خفاجة، في وصف شجرة بعينها،« فيصف **شجرة آراك** وهو مغرم بمجاري المياه وصفها، فيصف لنا الجداول، الذي يحف بالأراكة وصفا جميلان ثم يجنح إلى وصف الروضة التي تؤلف شجرة الأراك

[1] فوزي عيسى، في الأدب الأندلسي: ص 24

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص 98

إحدى مفاتنها» [1] فيقول:[2]

وآراكةٍ ضربت سماءِ فوقَنا، تندى، وأفلاكُ الكؤوسِ تُدارُ

حفّت بدَوحَتها مجرَّة جدولٍ، نثرت عليه، نجومَها الأزهارُ

وكأنّها وكأنّ جدولَ مائِها، حسناءُ شُدَّ، بخصرها زِنّارُ

زفّ الزّجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ تجُلى، ونوّارُ الغصون نِثارُ

في روضة جِنحُ الدّجى ظلّ بها، تجسّمت نورًا بها الأنوارُ

ويرى ابن خفاجة **شجرة منورة**، كساها نورها فتنة وبهجة فلا يملك كبح جماح شاعريته، فيصفها وصفا جميلا، ولا ينسى الندى والمياه التي يحاول دائما أن يزج بها في أبياته، فهي نظرة حياة الروض والأزهار، فيقول[3]:

ياربَّ مائسةِ المعاطفِ تزدهي من كلّ غصنٍّ خافقٍ بوشاحِ

مهتزّةٍ يرتجُّ من أعطافِها، من شئتَ من كفلٍ يموجُ رداحِ

نفضتْ ذَوائبَها الرّياح عشيّةً فتملّكتها هِزّة مرتاحِ

حطّ الربيعُ قِنَاعها من مفرقٍ شمطٍ كما ترتدُ كأسُ الرّاحِ

[1] عيسى خليل محسن: أمراء الشعر الأندلسي، دار جدير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص 109.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن الخفاجة: الديوان، ص 115.

[3] المصدر نفسه، ص 80

وفي روضية أخرى لابن خفاجة، نرى هذا الانصهار بين جمال الطبيعية وجمال المرأة، فيجعل لروضة قناعا ويتخيل للأقحوان ثغورا ترضع بها من أشداء الغمام، ويجعل للأشجار وجوها وللروابي شفاها وللأرواح أردافا وخصورا، وفي ذلك يقول:[1]

وكِمامةِ *حذر الصباحَ قناعَها عن صفحةِ تنْدى من الأزهارِ

في أبطحٍ وُضعت ثغورا أقاحهِ أخلافَ كلّ غمامَةٍ مدرارِ

نثَرت بحجرِ الأرضِ فيه يدُ الصّبَا دُررَ النّدى ودارهمَ النّوَّارِ

وقد ارتدَى غصنَ النّقَا، وتقلّدت، حَليَ الحَبابِ** سوالفُ الأنهارِ

فحللتُ حيث الماءُ صفحةُ ضاحكٍ جذلٍ وحيث الشطُّ بدءُ عِذارِ

كما أكثر من وصف الورد و**العنب** والأقحوان، فمن وصفه الجميل للعنب وتغليله سواد لونه نراه يقول:[2]

رضَعنا لها أمَّ الُمدامِ عشيَة ويا عجبا ما للرضاعة والكهلِ

وأسودُ معسولُ المجاجِ لو أنّهُ لمسض شفةَ لم أرْوِ يومًا من القُبلِ

حكى ليلة الهجرِ إسودادًا وإنّه لأشْهَى وأنْدى من حتى ليلةَ الوصلِ

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن الخفاجة: الديوان، المصدر السابق: ص 93

* كمامة: أكمام الزهر

** الحباب: ( هن) الندى الذي يزين في نظر الشاعر أوراق الأغصان

[2] المصدر نفسه:ص 161

وله في وصف **الريحان** أكثر من مقطوعة يقول[1] في إحداهما:

ومعشوقةٍ الحسنِ معشوقة، يهيم بها الطرف والمعطسُ

لها نضرةٌ سِمْتُهَا نظرةٌ، وتكْلفُ بالأنفُسِ الأنفسُ

فمن ماءٍ جفنى لها مكرَعٌ فسيحٌ ومن راحتي مغرسُ

لقد عمد ابن خفاجة في روضياته إلى التصوير والتلوين « مع الإكثار من التنبيهات فمثلا عندما ما يصف لنا روضة نرى الابتسامة ونرى حيشا يتحرك وترى الخمر كؤوسا متلألئة ونرى فرسا أشقر كما في الروضية التي تنتهي بظهور علام جميل »[2] فيقول:[3]

أحسُ المدامة، والنسيم عليلُ والظلُّ خفّاقُ الرِّواقُ ظليلُ

والنّورُ رطرفٌ، قد تنبَّه دامعٌ، والماءُ مبتَسَمٌ يروقُ صقيلُ

وتطلّعتْ من برقِ كلّ غمامةٍ، في كلِّ أفُقٍ رايةٌ ورعيلُ

حتى تهادى كلّ خوطَةِ أيْكةٍ، ريَّا وغصّتْ تلعةٌ ومسيلُ

عطفَ الأراكةَ فانثنَى شكرا له طربًا ورجّع في الغصونِ هذيلُ

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن الخفاجة: الديوان، المصدر السابق: ص ص 136، 137

[2] حمدان حجابي: حياة وأثر ابن خفاجة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2007م، ص 263.

[3] ابن خفاجة: الديوان: ص 183

كما وصف ابن الخفاجة **شجرة الأندلس** فيقول: [1]

وحاملةٍ، من بناتِ القنَا، أما ليدَ تحملُ خضرَا العذبِ

تنوبُ مورقةً عن عذارٍ** و تضحكُ ، زاهرةً عن شنبِ

وتندَى بها في مهبِّ الصّبَا زبرْجدةٌ أثمرتْ بالذّهبِ

فالنارنج هو" ليمون أبو صفير، فقد قتل ابن خفاجة جمال المتدلي والمتموج بألوانه وجمد فيه الحياة بإعطائه صورة فصوص ذهبية معلقة بأغصان من زبرجد، ولكن بيته الأخير أعاد ثانية إلى الشجرة وأمدها يزخم من النشاط والحيوية حينما منحها قدرة إنسانية في ابتسامة الرضا وخنق الغضب"[2] من خلال قوله:

فتَبسمَ في حالةٍ عن رضَا وتنظر آونةً عن غضبِ

**– الزهريات**

فُتن الأندلسيون بالأزهار التي كانت تزدهر بها الحدائق والرياض، وتزدان بها شرفات البيوت والقصور، وكان ابن الخفاجة قد أكثر من وصف الأزهار، فوصف الوردة والبهار والنرجس والأقحوان والشائق، والنيلوفر، والياسمين والبنفسج وغيرها مما وقعت عليه عينه، فإذا كان الشعراء الأندلسيين يعقد ومجالس الزهور مجتمعة ولم يجمعوها في قصيدة بعينها، فإن بعضهم قد عهد إلى وصف زهرتين مجتمعتين، كما فعل ابن خفاجة حيث وصف الوردة وقد نثر عليه نوار النرجس وشبه النوار في بياضه بثغر يقبل خدا احمر يقول:[3]

[1] ابن خفاجة: الديوان: ص 53.

* أما ليد: الأغصان الناعمة واللينة

[2] حمدان حجابي: حياة وأثر ابن خفاجة، ص 265

[3] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص 78

قد طَنّبَ المجدُ بيتًا فيهِ، وعرّسَ وفدَا

تذّكر به الشّهبُ جمرًا ويعبقُ اللّيل نَدًّا

وقد تأرّجَ نَوْرُ غضَ يُخالط وردًا

كما تبسَم ثغرُ عذْبٌ يقبّلُ خدًّا

كما نجده في وصفه **للشقائق** يصفن عليها مسحة عربية« فيجعل من أنهاره جيوشا تحتل القمم والمراقب»[1] يقول:[2]

يا حبّذَا والبرقُ يزحفُ بكرةً، جيشًا رحيق دونه وحريقِ

حتى إذا ولّى وأسلّمَ عنوةً، ما شئتَ من سهلٍ وذروةً نِيقِ

أخذ الربيعُ عليه كل ثنيّة فبكلّ مرقبةٍ لواءُ شقيقِ

لقد شغف ابن خفاجة بالطبيعة، فخلع عليها صفات الأنثى وملامحها، ويرى فيها مفاتن المرأة وسحرها، فلا يتردد حيث يقول:[3]

وغريبة هشّت إليّ غريزةٍ فوددتُ لو نُسِجَ الضّياءُ ظلامَا

طرأت عليّ مع المشيبِ تشوقنَي شيخًا كما كانت تشوقُ غلامَا

مقبولةٍ قبّلتها من لوعةٍ، نظرًا، بكونُ إذا اعتبرتُ كلامَا.

[1] عيسى خليل محسن: أمراء الشعر الأندلسي، ص 118

[2] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة:ديوان، ص 169.

[3] المصدر نفسه: ص 202

فالقطعة ظاهريا غزلا بشابة لا تجربة لها في الحب، ولكن البيت الأخير منها يوضح أن المقصود بتلك الطفلة وردة من ورد الربيع ذلك في قوله:[1]

عبقت وقد حنّ الربيع عن النّدى كرمًا فأهداها إليّ سلامَا

**– الثمار**

إن وصف ابن الخفاجة للثمار لم يكن أوفر من الأزهار حظا فالأنواع التي ذكرها ابن خفاجة في ديوانه منها قليلة وهي : النارنج والتين والعنب والرمان.

فثمر **النارنج** وصفه ابن خفاجة على أغصانه، فيقول:[2]

ومحمولةٍ فوق المناكبِ عزةً، لها نسبٌ في روضةٍ الحزنِ معرقُ

رأيت بمرآهَا المنى كيف تلتقي، وشملَ رياحِ الطيّبِ وهي تفرّقُ

يضاحكهَا ثغرٌ من الشمسِ واضحُ ويلحظهَا طرفٌ من الماءِ أزرقُ

وتُجلى بها لماءِ والنارِ صورةٌ تروقُ فطرَ في حيث يغرقُ يحرقُ.

**– المائيات**

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة:ديوان، المصدر السابق، ص 202.

[2] المصدر نفسه: ص .165.

* الحزن: المكان المرتفع

** معرق: ذو النسب المتأصل

*** النار: أراد لون النار وهو لون ثمار النارنج الحمراء المعروفة بليمون.

تنوعت مصادر الطبيعة المائية في الأندلس بين الأنهار والغدران والبحار وقد فتنت هذه الطبيعة شعراء الأندلس وكانت مصدر الهام شعري، فافتنوا في وصفها وتصويرها في لوحات شعرية بديعة حافلة بالألوان والأصباغ ، ومن أشهر الأنهار نهر أشبيلية الأعظم نهر غرناطة، ونهر جزيرة شقر الذي يتلف بها مثل السوار، وقد تغنى به ابن خفاجة، فرآه أشهى في عذوبة مياهه من الرضابّ، وأشار إلى التفافه حول الجزيرة كما يلتف السوار بالمعصم، وراقة منظره والأزهار تكتنفه فتخيله مجرة سماوية ملتفتا إلى هيئة وألوانه، وشبهه في رقته بقرص الفضة الذي ارتدى حلة خضراء، وشبه الغصون وهي تحف به بالأهداب التي تحف بعين زرقاء، ومن ذلك يقول:[1]

لله نهرٌ سال في بطحاءٍ أشْهَى ورودًا من لمى* الحسناءِ

متعطّفُ مثل السِوارِ كأنّه، والزهرُ يكنُفُهُ** مجرُّ سماءِ

قد رقَ حتى ظنّ قُرصًا مفرغًا من فضّةٍ في بردةٍ خضراءِ

وغدت تحُفُّ به الغصونُ كأنّها هُدبٌ يحفُّ بمقلةٍ زرقاءِ

ولطالما عاطيتُ فيه مُدامةً صفراءَ تخصِبُ أيديَ النُّدماءِ***

والماء أسرع جرية متحدّرًا متلوّيا كالحيّة الرّقطاءِ.

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذَهبُ الأصيلِ على لجُينِ الماءِ.

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة:ديوان، المصدر السابق: ص ص 13،12

* لمى الحسناء: كناية عن سمرة شفتيها

** يكتفه: يحيط به

*** الندماء: جمع نديم، الجليس المشارك في الشرب

## الظواهر الجوية:

### – السحاب

لقد أشار ابن خفاجة إلى السحاب فينسب لها صفات تميز الإنسان عادة فيقول مثلا في وصف سحابة:

وعمامة لم ينقل بها الشرى فمشت على الظلماء مقيد

### – الريح

إن الرياح في جوهرها حركة، فدورها تهز الأشجار المزهرة حتى تتساقط أزهارها كما يذكرها ابن خفاجة في صور غزلية شقية فيقول[1]:

والريحُ تلطمُ فيه أردافَ الرُّبى لعبًا وتلثمُ أوجهَ الأزهارِ.

### – البرق والرعد

البرق والرعد في غالب الأحيان رسولان أمينان يحملان الأسرار إلى الأحباب ويعودان بالأخبار عنهم، كما يتأتى لهما تبشير الطبيعة بسقوط المطر لإطفاء عطشها، فيقول في هذا الشأن:[2]

رعدت فرجّعت الرُّعاءَ مطيّةٌ لم تدرِ غير البرْقِ خفقِ زمامِ

أوحت هناكَ إلى الرُّبى أن بشرّي بالرّيِّ فرعَ أراكةٍ وبشامِ

### – النّهار

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة:ديوان، المصدر السابق، ص 98

[2] المصدر نفسه: ص 202

لقد وصف ابن الخفاجة النهار فرؤيته بضيائه الذي يتقدم بتأني وثبات قاضيا على الليل بظلامه الداجن، تذكر ابن الخفاجة بالفتح فيسمح له خياله بصور حربية قوية إذ يقول:[1]

وكأنّ ضوءُ الصُبحِ رايةُ ظافرٍ، نفضت به الهيجاءُ نضحًا *من دمِ

ويقول أيضا:[2]

والصُّبح قد مزَّقَ عن صدرِه، جَيْبَ ظلامٍ بات مزرورَا

ويقول إذا لاح نور الصباح الناشئ:

وافتر مبتسم الصباح كأنّه وضح بقادمَة الغراب الأعصمِ

كما يشير إلى الصباح بألفاظ وعبارات غزلية فيقول:[3]

لقد ضحكَ إلى الصّباحُ بمجتلاهُ وراء اللّيلِ عن ثغرٍ شنيبِ*

**– الليل**

يعتبر الليل عند ابن خفاجة أفضل الأوقات لتحقيق رغبات المحبين، حيث يلذ السمر وتنعقد مجالس الأنس في جوكله مرح، وهم يتناولون خمرا عتيقة ويتمتعون بالاستماع إلى ما يطرب النفس من شعر وموسيقى

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة:ديوان، المصدر السابق، ص 206

* نقصت نضحا من الدم: يشير على الاحمرار الذي يظهر في الأفق الشرقي عند شروق الشمس

[2] المصدر نفسه، ص 126

[3] المصدر نفسه: ص 49

* ثغر نشيب: الطيب

تؤديها قيان حسان، وبالليل أيضا يتلقى الحبيب بالحبيبة ويسعد بحضورها في الانفراد التام بعيدين كل البعد عما يزعجهما، يقول[1]:

ويا ربَّ ليلٍ جنيَّ المنى شهيَّ اللّمى مستطابِ اللّمَمْ

لهوتُ ودونَ التِماحِ الصّباحِ ظلامٌ سجا، وغمامٌ سجمْ

يمدُ الشّرابُ ببردِ الرُّضابِ وجنحُ الظّلامِ بسودِ اللممْ

وقد كتم اللّيلُ سرَ الهوَى، ونمّتْ بنا استودعته النِّسمْ

**– الثلجيات**

يقترن فصل الشتاء في بعض مناطق الأندلس الثلج بهطول الثلج، لا سيما في الجبال العالية ومنها جبل ( شلير)، الذي يغطيه الثلج شتاء وصيفا، وكذلك بعض مدن الأندلس ومنها: طليطلة وسرقسطة وبطليوس.

وقد التفت الشعراء إلى هذه الظاهرة واتخذوها موضوعا وصفيا، فابن الخفاجة يصفن طبيعة في رحاب الثلج، « وقد غطى وجه الأرض فأخفاه كالبرقع، والتحف به غصن النقا فبدأ كالمحتبي، وقد اكتست نواصي الغصون بالبياض، وكأنها شعور وغزاها الشيب؛ »[2] يقول[3]:

ألاّ فصلتَ ذيلها، ليلةٌ تجرّ الرّبابُ بها هيدباَ

وقد يرقع الثلج وجه الثَّرى، وألحنَ غصنُ النّقا فاحتبى

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة:ديوان، المصدر السابق، ص 212

[2] فوزي عيسى: في الأدب الأندلسي،ص 92

[3] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة :الديوان، ص 26

الرباب: الأبيض من السحب

الهيدب: السحاب المنخفض

فشابت وراء قناع الظّلام، نواصي الغصونِ وهامُ الرّبُاَ

ويرسم ابن الخفاجة لوحة فتية للبرد المتساقط على الأرض يؤنسها ويتخيل البرد عقود زين جيدها وتحدر من نحرها ويعمد إلى المقابلة فيرى الأرض وقد زينتها قلائد النجوم، فبدت ضاحكة بينما تجهم الجو وقطب جبينه، ويعمد إلى الإغراق في الحسية، يقول:[1]

ياربّ قطرٍ جامد حلّى به، نحرَ الثّرى، بردٌ تحدَّرَ صائبٌ

حصبَ، الأباطحَ منه ماءٌ جامدٌ غشّى"، البلادَ به، عذابٌ ذائبٌ

فالأرضُ تضحك عن قلائدِ أنجمٍ، نثرت بها ،والجوُّ جهمٌ قاطبُ

فكأنّما زنت البسيطة تحته فأكب يرجمها الغصام الحاصبُ

لقد بلغ شعراء الأندلس وصف الطبيعة والاستعانة بها في شعرهم حدا « يصعب على القارئ أن يدري إذا كان الشعراء يتحدثون عن الطبيعة أم كانت الطبيعة تتحدث عنهم لفرط ما تغلغلت في نفوسهم ولكثرة ما وصفوا من مناظرها »[2].

## ب- الطبيعة الحية

### وصف الحيوان:

لقي موضوع الحيوان ووصفه أهمية بالغة في الدراسات القديمة فالجاحظ مثلا أفرد كتابا سماه ( الحيوان)، وكتاب ( الحيوان في الشعر الجاهلي) لحسين جمعة، وكتاب حازم عبد الله خضر ( وصف الحيوان في اشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين).

[1] المصدر نفسه: ص 38

[2] جودة الركابي: الطبيعة في الشعر الأندلسيين مكتبة أطلس، دمشق، سوريا، ط2، 1970م، ص ص 50، 52

ومن الشعراء الذين أبدعوا في وصف الحيوانات ابن خفاجة، « يرى الدكتور جلال حجازي أن ابن خفاجة اتجه بشعر الحيوان اتجاها جديدا نتيجة لظروف الأندلسيين السياسية والنفسية»[1] ومن بين الحيوانات التي وصفها نجد:

**- الذئب**

حظي هذا الحيوان باهتمام بالغ في أوصافهم كالسرعة والقوة والمراوغة ذلك الحيوان الشرس المتوحش الذي لا يستطيع أن يقف أمامه أي صيد يسعى وراءه وابن الخفاجة رسم في وصف الذئب مشهدا مأساويا قاسيا صور فيه الظلام المطبق والبرد القارص والجوع اللاذع مع عواء الذئب مما يعطي القصة حقيقية يقول:[2]

وأطلسُ زوّارٌ مع الليّل اغبشٌ سرى خلفَ أستارِ الدُّجى يتنكّرُ

تثاءبَ من مس الطّوَى مهم يشتكي، فيعوِي وقد لفتَه كباءُ صرصرُ

ودون أمانِيهِ شرارة لهَذْمِ يقلّبُ فيها مثلهَا حين ينظُرُ

ويقول أيضا:[3]

ومفازةٍ لا نجمَ في ظلمائهَا يسري ولا فلكٌ بها دوّارُ

طرّاقُ ساداتِ الديارِ مساورٌ، ختّالٌ أبناءَ السُّرَى، غذّارُ

يسرِي وقد نضح النَّدَى وجه الصّبا في فروةٍ قد مسّهَا اقشعرَارُ

[1] زين كامل خوسكي: في الأدب العباسي والأندلسي، ص 85

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان ، ص 122، 123

[3] المصدر نفسه: ص ص 117،118

**– النحل (الحشرات)**

والمعروف أن ابن الخفاجة لم يلتفت في عالم الحشرات إلا النحلة وذل حين بعث له أحد أصدقائه بشهد النحل فوصف النحلة وصافا رائعا قال فيها:[1]

لله ريقةُ نحلِ رعى الرُّبَى والشّعابَا

وجابَ أرضًا فأرضَا يغشَى مَصابَا مَصاباً*

حتى ارتوى من شفاءٍ يمجّ منه رُضابَا**

إن شئتَ كان طعامَا أو شئت كان شرابَا

وكتب مع هذه الأبيات رسالة، جاء فيها:« وكفى النحلة فصيلة، ذات وجلالة صفات؛ أنها أوحي إليها وأثني في الكتاب عليها، تعلم مساقط الأنداء، وراء البيداء، فتقع هناك على نوارة عبقة، وبهارة أنقه؛ ثم تصدر عنها بما تطبعه شمعة، وتبدعه صنعة وترتشف منها ما تحفظه رضابا، وتلفظه شرابا وتتجافى بعد منه عن أكرم مجتني، وأحكم مبتنى »[2].

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان ، المصدر السابق: ص130.

* مصابا: موقع الغيث

** الرضاب: رغوة العسل

[2] شهاب الدين النوري: نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق محمد رضا مروة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 175

**-البازي**

لقد شغف ابن الخفاجة بهذا الطائر إلى حد بعيد، حيث كانت تربته تتم بإسبانيا بالذات، فرسم مشهدا بدقة بالغة يقول:[1]

طردَ القنيصَ بكلّ قيدِ طريدةٍ * زجلِ** الجناحِ مُورَّدِ ***الأظفارِ

ملتفّة أعطافُهُ بحيرةٍ، مكحولةٍ أجفانه بنُضارِ

يرمي به الأملَ القصيَّ فينثني مخضُوبَ راءِ الظِّفرِ والمنِقارِ

**-الفرس**

نالت الخيول اهتمام الشعر الأندلسي، وحظيت بحرصه عليها وتفاخره بها وبقوتها وسرعتها ونجابتها، ومن الشعراء الذين اهتموا بها نجد ابن خفاجة المعروف بافتنانه بالطبيعة، يستعيد لفرسه ألوان وصفات وخصائص وهو كالريح وكالبرق في سرعته يقول الشاعر في وصف سرعة فرسه[2]:

ربَ طرق كالطرف سرعة عدو ليس يسرى له طيف الخيال

وقال في صفة فرس أشقر:[3]

ومُطهَّمِ شرقِ الأديمِ كأنّما ألفت معاطفُه النَّجيعَ خِضابَا

طرِبٌ إذا غَنّى الحسام ممزِقُ ثوبَ العجاجَة جيئَةً وذهابا

---

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص 99

* الطريدة: الفرس النشيط

** زحل: ذو صوت

*** مورد: مد من مصبوغ بلون الورد

*1: حبيدة: البرد المذركش

[2] المصدر نفسه: ص 188

[3] المصدر نفسه: ص 31.

قدَحَتْ يدُ الهيجاءِ منه بارقًا متلهّبًا يزْجِي القَتامَ سحابَا

ورمى الحفاظُ به شياطينَ العدَى فانقضَّ في ليلِ الغُبارِ شهابَا

بسّامُ ثغرِ الحلِي تحسبُ أنّه كاسٌ أثار بها المزاجُ حَبابَا

ونجد في أبيات أخرى حيث يصور لنا شاعر فيها حديثا يدور بينه وبين راحلته لقد اتخذ منها وسيلة ليعبر عن ذاخله وما كان يكنه.

فيقول:[1]

سحبتُ الدّجَى منها بأعنَسَ* ضامرٍ رميتُ به ركنَ الدُّجَى فتهدّمَا

يقلّبُ طرفًا في الكواكب، ساميًا، فكأن به تحت الظلامِ منجّمَا

ومن عجبِ أني أرى القوسَ منحنِي به، في يد البيداءِ والسّهمِ مرتمَى

ويطربه سجعُ الحمامةِ بالضحى فيلوي إليها ليتَهُ** متفهِّمَا

**-النّار**

لقد أبدع شعراء الأندلس في وصف النار الحديث عن روعتها و سحر مناظرها وهي تغازل الريح، فتعالى نحو السماء أو تخبو نحو الأرض فقالوا فيها كثيرا عبر العصور الأدبية، من بينهم ابن خفاجة الذي كانت له بضعة أبيات أفردها للنار يقول:[2]

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، المصدر السابق، ص203.

* أعنس: البعير الموثق الخلق

** الليث: الجيد أو صحفته

[2] المصدر نفسه: ص81.

ومؤْقِدِ نارٍ طاب حتى كأنَّما يشبُّ الندى في لسارى الدّجى ندَّا

فاطلعَ من داجِي دخانٍ بنفسجًا جنيًا ومن قانِي شواظٍ* له وِردَا

وضاحِك غرًّا من وجوه وضيئةٍ، فلم أدر أيٌّ كان أذكاهما وقْدَا

إذا بسطت كفُّ الهِياجِ إلى العِدى أنامل سُمرٍ الخطِّ** كانوا لها زنْدَا

أرى خير نارٍ حولها خيرُ فتيةٍ أنافَتْ*** لهم جيدا وحَفُّوا بها عِقدَا

إذا الريّحُ هبّتِ من سواد دُخانها عِذَارًا ومن محمرٍ جاحمِهَا خدَّا

وثارتْ قتامًا بملأ العين أكهبا، وحالت جوادًا في عنَانِ الصّبا وردَا

رأيت جفون الرّيح واللّيلُ إثمِدٌ تقلّبُ من جَمرِ الجذى أعينا رمْدَا

**-القمر**

ومن الأوصاف السماوية لابن خفاجة وصفه للقمر، فقد خلا بنفسه يفكر وينظر نظر الموقف يعتبر، ويحاول أن يستنطق القمر قائلا[1]:

لقد أصختُ إلى نجواكَ من قمرٍ، وبتُّ أدلجُ بين الوعيِ والنّظَرِ

لا أجتلي مُلَحًا*، حتى أعي ملحَا، عدلًا من الحكم بين السمع والبصر

---

* الشواظ القاني: اللهب الأحمر، الجمر.

** سمر الحظ: الرماح

*** أناقت الجيد: رفعته

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، المصدر السابق، ص ص111، 112.

* الملح: البياض يداخله السواد، والمقصود هنا الشيب.

وقد ملأتُ سواد العين من وضحٍ[**]، فقرط السّمع[***] قُرطَ الأنس من سمرِ

فلو جمعت إلى حُسن محاورةً، حُزتُ الجمالينِ من خُبر ومن خَبرِ

وإن صممتَ، ففي مرآكَ لي عظةٌ قد أفصحت لي عنهَا ألسنُ العَبرْ

نرى من خلال هذه الأبيات أن ابن خفاجة يصف القمر في حد ذاته أن الشاعر لم يتعرض البتتة للوصف، وإنما غرضه مناجاة هذا الكوكب.

**ثانيا: المظاهر الحضارية**

وكما تغنى الشعراء بطبيعة الأندلس الحية والميتة، نراهم قد تغنوا بوصف طبيعتهم الصناعية الممثلة في وصف قصور الأمراء والخلفاء والملوك: « فهذه القصور الشامخة الباذخة التي أبدعت يدا الفن في هندستها، وزخرفتها من الخارج والداخل وتأنقت في إنشاء حدائقها وكل ما يتعلق بها، هي التي كان شعراء الأندلس يتنافسون في وصفها فوصفوا بركها وحدائقها، كما وصفوا المنتزهات وغيرها من المظاهر الحضارية الأخرى »[1]. ومن بين الشعراء الذين تطرقوا في شعرهم إلى وصف هذه المظاهر، الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، والذي تميز وصفه للقصور بالتفجع عليها، ومن ذلك قوله يصف قصرا[2]:

ومرتبعٍ حططتُ الرحلَ منه بحيث الظّل والماء القراحُ

يُحرمُ حسنَ منظره ليكُ يحرم مُلكه القدرُ المتاحُ

فجرية ماءٍ جدولهِ بكاءٌ عليه، وشدوُ طائرِهِ نياحُ

[**] الوضح: بياض الصبح، وبياض القمر، والمراد طلعة المحبوب.

[***] فرط السمع: من قرط الجارية، ألبسها قرطا

[1] عبد العزيز عيسى: الأدب العربي في الأندلس، ص124.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص65.

ويقول في وصف حديقته[1]:

وصقليةُ الأنوار تلوى عطفهَا ريحٌ تلفُّ فروعها معطارُ

عاطي بها الصهباءُ* أحوى أحورٌ سحّابُ أذيالِ السُرى سحّارُ**

والنّورُ عقدٌ والغُصونُ سوالفٌ والجذعُ زندٌ والخليجُ سوارُ

بحديقة ظلِّ اللّمى ظلاّ بها وتطلّعَت شَنَبَا*** بها الأنوارُ

رقص القضيبُ بها وقد شربَ الثَرى وشدًا الحمامُ وصفقَ التيارُ

غنّاء ألحفَ عطفها الورق النّدى، والتفَّ في جنباتِها النُّوارُ

إن وصف الحديقة من المناظر التي وقف أمامها الشاعر الملهم بها، حيث وصفها وصفا دقيقا واطلع على مناظرها ومكوناتها وخباياها وروضها الفاتن المفعم بالحياة الجميلة المرسومة في جو من الزخرف والبهاء، ويقول في قصيدة يصف فيها منتزها[2]:

ياربَّ وضّاحِ الجبين كأنمّا رسمُ العِذار بصفحتيه كتابُ

تغري بطلعتهِ العيونُ مهابةً وتبيتُ تعشقُ عقلهُ الألبابُ

خُلعَت عليه من الصّباحِ غلالةٌ تندَى ومن شفقِ السماءِ نقابُ

---

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، المصدر السابق: ص128.

[*] الصهباء: الخمر.

[**] سحار: فاتن.

[***] الشنب: بياض الأسنان

[2] المصدر نفسه: ص36.

فكرعتُ من ماء الصَّبا في منهلِ قد شُقّ عنه من القميصِ سرابُ

في حيث للرّيحِ الرّخاءُ تنفسٌ أرجٌ، وللماءِ الفُراتِ عُبابُ

ولقد أنختُ بشاطئيْهِ يَهزّني طربًا شبابُ راقني وشرابُ.

هكذا كانت الطبيعة بمختلف مظاهرها أكثر واهم ما ميز أشعار ابن خفاجة.

## الفصل الثاني: وصف الطبيعة بين البحتري وابن خفاجة

**أولا**: الصورة الفنية

**ثانيا**: الصورة الشعرية

## أولا: الصورة الفنية

يعد التصوير الفني من فنون السحر والجمال، الذي أثار الشعراء لما له من طاقات إيحائية، والصورة الفنية هي تلك اللقطة التي يصورها الفنان أو المبدع، ويضفي عليها من روحه وذوقه وثقافته على تلك الصور لتتحرك في أوضاع توحي بمعاني فتنسب إلى مصورها.

ولهذا سنحاول من خلال هذا الفصل الكشف عن الصورة في شعر البحتري وابن خفاجة، والوقوف على أوجه الاختلاف والتشابه في شعرهما.

### مقدمة القصيدة:

لقد سيطرت الطبيعة على مقدمات قصائد الشعراء سيطرة تامة، فقد تفشى استغلال الطبيعة في مطلع قصائدهم.

وكانت قصائد البحتري تعنون من خلال الشطر الأول في مطلعها كقوله في قصيدة الربيع[1]:

أَتاكَ الرَبيعُ الطَلَقُ يَختالُ ضاحِكاً  مِنَ الحُسنِ حَتّى كادَ أَن يَتَكَـلَّما

وقد التزم البحتري في بناء قصائده على مقدمات في الغزل والطيف لأنه يجد فيه عوضا عن اللقاء بـ (علوة)، فكان خيالها يزوره من المنام فيقول[2]:

خَيَالٌ يَعْتَرِيني في المنَامِ  لسَكْرَى اللّحْظِ، فاتِنَةِ القَوَامِ

لعَلْوَةَ، إنّها شَجَنٌ لنَفْسِي  وَبَلْبَالٌ لقَلْبِي المسْتَهَامِ

وكلما تضائل الأمل في اللقاء وطال البعد وتأججت نيران الأشواق هرع البحتري إلى ذكرياته وأحلامه وترقب زيارة الطيف يقول[3]:

---

[1] البحتري: الديوان، مج1، ص209.

[2] المصدر نفسه: مج2، ص850.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

سَلامُ الله، كُلَّ صَباحِ يَوْمٍ عَلَيكِ، وَمَنْ يُبلّغ لي سَلامي؟

وكما نرى أيضا الشاعر يبدأ موصوفه مباشرة من غير تمهيد، فيقول في وصفه للفرس[1]:

إمّا بأشقرَ ساطعٍ أغشَى الوغَى ... منهُ بمثلِ الكوْكبِ المتأجّجِ

ونجد ابن خفاجة أيضا استغنى عن ذكر الأطلال الذي لازم القصيدة العربية طويلا، وعوض بذكر وصف الطبيعة، حيث صور في شعره كل ما جاءت به البيئة الأندلسية، من مناظر طبيعية كوصف الأزهار والأنهار، الثلوج، الرياض، الجبال ومناظر اصطناعية ناشئة من استبحار الحضارة والعمران، كالمتنزهات والحدائق، يقول في وصف الرياض[2]:

وَكِمامَةٍ* حَدَرَ الصَباحُ قِناعَها عَن صَفحَةٍ تَندى مِنَ الأَزهارِ

وقد سار ابن خفاجة على نهج البحتري في بدء موصوفه مباشرة كما جرت عادة الشعراء في القديم، قول[3] ابن حفاجة في وصف الفرس:

ومطيّهم شرقِ الأديمِ كأنّما أيَفتْ معاطِفه النجيعَ خِضابا

طربٌ إذا غنّى الحُسامُ ممزّقٌ ثوبَ العجاجةِ جيئةً وذهابا

ونجد أيضا التزام ابن خفاجة بالطيف، فهو يصف طيفا ألم به في الليل الطويل وأخذ يشبه محبوبته بأنواع الرياحين، وترك لخياله أن بتصوير ما يشاء في هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبته ودام هذا اللقاء إلى طلوع الفجر، وعيون الليل تتجسس على أخبارهم فيقول[4]:

وَرِداءِ لَيلٍ باتَ فيهِ مُعانِقي طَيفٌ أَلَمَّ لِظَبيَةِ الوَعساءِ

فَجَمَعتُ بَينَ رُضابِهِ وَشَرابِهِ وَشَرِبتُ مِن ريقٍ وَمِن صَهباءِ

---

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق، مج1، ص403.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة في الديوان، ص107.

الكمامة: أكمام الزهر.

[3] المصدر نفسه: ص31.

[4] المصدر نفسه: ص ص 10، 11.

وَلَثَمتُ في ظَلماءِ لَيلَةِ وَفرَةٍ شَفَقاً، هُناكَ، لِوَجنَةٍ حَمراءِ

**التخلص**

البحتري أحد الشعراء الذين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم في النسيب متعلقا بكلامهم في المدح لا ينقطع، وقول حسن اليظي أيضا في أثناء دراسته وتحليله لقصيدة الأسد فبعد: « أن يتغزل –البحتري– ويذكر الطيف في عشرة أبيات ينتقل إلى مدح الفتح ثم يربطه بوصفه للمعركة ربطا موفقا باعتبار شجاعة الفتح من عناصر أصالته وتفوقه وحسد الحاسدين عليه »[1].

ومما سبق أن لاحظه أحمد بدوي حين قال: إن كثيرا من غزل البحتري في مقدمات قصائده كان غزلا مقصودا لذاته، ويرسم فيه عواطفه وإحساس نفسه، « فكانت القصيدة في الواقع كأنها مركبة من قصيدتين: واحدة يفرغ فيها عواطفه في الغزل وأخرى لغرض المدح أو غيره من الأغراض، فكأن البحتري، كان يضم إحدى القصيدتين إلى الأخرى من غير أن يعني بالربط بينهما، ولذلك أرجح أن كثيرا من هذا الغزل الذي بدا به قصائد مدحه كان غزلا صرفا أنشأه البحتري إرضاء لعاطفته الشخصية، وإلا فمن غير المعقول أن شاعرا محبا كالبحتري لا يكون له في الغزل إلا ثلاث قطع صغيرة ولا نستطيع تعليل ذلك إلا بأنه قد أشبع نفسه غزلا لا بهذا الغزل الذي بدا به المدح »[2].

ومما يعزز الرأي القائل بأن قصيدة المدح كانت مركبة من قصيدتين ما عيب على البحتري من سوء التخلص أو عدم القدرة على أن يتخلص من النسيب إلى المدح تخلصا حسنا، وفي ذلك يقول ابن الأثير: « إنه أي البحتري، لم يوفق في التخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضابا، ولقد حفظت شعره فلم أجد له ،من ذلك شيئا مرضيا إلا اليسير »[3].

[1] حسن صالح: اليظي.: البحتري بين نفاد عصره، ص102.
[2] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، ص ص 153، 154.
[3] المرجع نفسه، ص154.

وكثير من مدائح البحتري ينطبق عليها هذا الحكم فتبدو المقدمة الغزلية كأنها قصيدة منفصلة، ومن ذلك هذه المقدمة لإحدى مدائحه[1]:

لي حَبيبٌ قَدْ لَجّ في الهَجْرِ جِدّا وأعَادَ الصّدودَ مِنْهُ وأبْدَا

ذُو فُنُونٍ، يُرِيكَ في كلّ يَوْمٍ خُلُفاً من جَفَائِهِ، مُسْتَجَدّا

وعلى خلاف البحتري نجد ابن خفاجة، وقد وفق في التخلص والخروج فهو ينتقل من لوحة إلى أخرى ومن غرض إلى آخر، يقول في وصف روضة[2]:

أَما وَالِتِفاتِ الرَوضِ عَن أَزرَقِ النَهرِ، وَإِشراقِهِ جيدِ الغُصنِ في حِليَةِ الزَهرِ

وَقَد نَسَمَت ريحُ النُعامى فَنَبَّهَت عُيونَ النَدامى تَحتَ رَيحانَةِ الفَجرِ

ثم نراه ينتقل إلى غرض الغزل بفتاة فيقول[3]:

وَخِدرِ فَتاةٍ قَد طَرَقتُ وَإِنَّما أَرجتُ بِهِ وَكرَ الحَمامَةِ لِلصَّقرِ

**خاتمة القصيدة**

الانتهاء قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله أن يكون محكما.

– لقد أجاد البحتري في خاتمة القصيدة، يقول ابن رشيق القيرواني « وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه »[4].

وقد سار ابن خفاجة على درب البحتري، فعندما ننظر إلى خواتم قصائده فإننا نجدها قد اهتم بتحسينها وتزيينها؛ لأنه كان يتوجه بها إلى الملوك والوزراء الذين كان أغلبهم من الأدباء، لهذا اهتم الشاعر بخواتم القصائد

[1] البحتري: الديوان، مج 2، ص711.
[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص87.
[3] المصدر نفسه: ص94.
[4] فوزي عيسى: في الأدب العباسي، ص62.

لتثير انفعالات الممدوح وتهز سماحته فهذا ابن خفاجة في إحدى لوحاته الفنية يصور لنا البرد المتساقط ويظهر لنا جمال نسيج قصيدته وأحكام صياغتها وقوة قوافيها، وكثرة أفكارها، يقول[1]:

يا رُبَّ قَطرٍ جامِدٍ حَلّى بِهِ، نَحرَ الثَرى، بَرَدٌ تَحَدَّر صائِبُ

حَصَبَ، الأَباطِحَ مِنهُ، ماءٌ جامِدٌ، غَشّى البِلادَ بِهِ، عَذابٌ ذائِبُ

فَالأَرضُ تَضحَكُ عَن قَلائِدِ أَنجُمٍ نُثِرَت ،بِها وَالجَوُّ جَهمٌ قاطِبُ.

**الوحدة العضوية**

جاءت خواطر البحتري وافكاره مترابطة، واستكمالا لما قبله، يتميز شعره في الطبيعة بالتتابع بين أجزاء الواقع الذي يصفه، ويظهر هذا خاصة في وصفه للذئب، بنية نابضة بالحياة تتجمع فيها إحساسات الشاعر وذكرياته.

وأحيانا تنعدم الوحدة العضوية وتصبح الأفكار مبعثرة، حيث يمكن التقديم والتأخير دون إخلال المعنى هذا راجع إلى كثرة التشبيهات وتتجلى هذه الخاصية في وصف فرسه يقول[2]:

فأعِنْ عَلى غَزْوِ العَدُوّ بِمُنْطَوٍ أَحْشاؤهُ، طَيَّ للكِتابِ المُدْرَجِ

إمّا بأَشْقَرَ ساطِعٍ، أغشَى الوَغَى مِنْهُ بِمِثْلِ الكَوْكَبِ المُتَأَجِّجِ

مُتَسَرْبِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعْطافَهُ بدَمٍ فَما تَلْقَاهُ غَيرَ مُضَرَّجِ

أوْ أدْهَمٍ صَافِي السّوَادِ، كَأنّهُ تَحتَ الكَمِيّ مُظَهَّرٌ بِيَرَنْدَجِ

من خلال هذه الأبيات يمكن تقديم البيت الثالث محل البيت الثاني وعلى خلاف البحتري نجد ابن خفاجة وقد زواج في وصفه للطبيعة بين الوحدة العضوية وانعدامها، جاءت بعض أبياته مترابطة ومتسلسلة لا

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: ص38- 39.

[2] البحتري: الديوان، مج1، ص402.

يمكن التقديم والتأخير أو الحذف فيها، في حين نعثر على مقطوعات شعرية له يمكن التلاعب بترتيب أبياتها دون أن يحدث تغيير في الدلالة[1].

في مقابل ذلك حظي شعر الطبيعة عند ابن خفاجة بالوحدة الموضوعية فقد خص بعض الموصوفات بمقطوعات شعرية وأفرد لبعضها قصائد مستقلة كوصف الجبل ووصف القمر.

**الأغراض الشعرية**

أجاد البحتري في أغراض أخرى كالغزل والعتاب والرثاء والاعتذار إلى جانب غرض الوصف، وعده النقاد سيدا في هذه الصناعة، ويمزج البحتري بين المدح والوصف في قصيدته المشهورة في وصف بركة المتوكل التي قول فيها[2]:

يا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤيَتُها  والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها

ويخلص البحتري بين المدح والوصف في قصيدته المشهورة بركة إلى مدح المتوكل التي يقول فيها[3]:

يا ابنَ الأباطحِ مِنْ أرْضٍ أبَاطِحُها  في ذِرْوَةِ المجْدِ أعلى مِن رَوَابِيهَا

مَا ضَيّعَ اللهُ في بَدْوٍ وَلاَ حَضَرٍ  رَعِيّةً، أنتَ بالإحْسَانِ رَاعِيها

في حين يظهر شعر الطبيعة عند أبن خفاجة مغرض منفرد، ولكن الأعم. الأغلب يأتي ضمن قصائد الغزل والفخر والمديح والرثاء والغناء والخمر، وكان الغزل من أكثر الأغراض امتزاجا بالطبيعة وقد لوحظ من قبل الباحثين أن ابن خفاجة كان يتكأ على معان جاءت من المشرق ولاسيما غرض وصف الطبيعة.

يرى ابن خفاجة أن جمال الطبيعة في جمال المرأة فيصورها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط، ولنسمعه في هذه القصيدة يقول[4]:

---

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص122.

[2] البحتري: الديوان، مج4،ص2416.

[3] المصدر نفسه، مج4، ص2412.

[4] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص70.

يا رُبَّ مائِسَةِ المِعاطِفِ تَزدَهي مِن كُلِّ غُصنٍ خافِقٍ بِوِشاحِ
مُهتَزَّةٍ يَرتَجُّ مِن أَعطافِها ما شِئتَ مِن كَفَلٍ يَموجُ رَداحِ
حَطَّ الرَبيعُ قِناعَها عَن مَفرِقٍ شَمطٍ كَما تَرتَدُّ كاسُ الرّاحِ
لَفّاءُ حاكَ لَها الغَمامُ مُلاءَةً لَبِسَت بِها حُسناً قَميصَ صَباحِ

ومثلما جمع ابن خفاجة بين الطبيعة وتصوير المرأة، جمع أيضا بين الطبيعة والخمر والحب، « فالطبيعة اليانعة في نظر فنان مثله هي الإطار المثالي لكي تنعقد فيه مجالس الأنس »[1] يقول الشاعر[2]:

فَما الأُنسُ إِلّا في مُجاجِ زُجاجَةٍ وَلا العَيشُ إِلّا في صَريرِ سَريرِ
وَإِنّي وَإِن جِئتُ المِشيبَ لَمولَعٌ بِطُرَّةِ ظِلٍّ فَوقَ وَجهِ غَديرِ

كما مزج الشاعر أيضا بين الطبيعة وموضوع الخمرة، فجمال المنظر وسحره، وشدو الطيور وتغريدها والرعد **وعربدته** هي التي دعته لمنادمة الكأس **وارتشاف** رحيقها، وتبرز عند ابن خفاجة بشكل كبير فهو كثيرا « ما عاقر الراح في أحضان الرياض والبساتين واحتسى الرحيق على نغمات الجداول، وزقزقات العصافير »[3]، فلذته لا تبلغ ذروتها وعنفوانها إلا بتكامل الاثنين: الطبيعة والخمرة، يقول[4]:

وساق لخيل اللّحظِ في شأْوِ حُسنِه جِماحٌ وللصّبر الجميل حِرانُ
ترى لصّبانا بخدّيه لم يَثِرْ لهَا، من سوادَي عارضيه ، دخانُ
ساقاها وقد لاح الهلال عشيةً كما اعوجّ في ذرع الكميّ سنانُ
غقارا نماها الكرْمُ فهي كريمةٌ، ولم تزن باين المزن فهي حَصَانُ

**الأسلوب**

لكل شاعر طريقته الخاصة في عرض أفكاره، فكان أسلوب البحتري غير معقد، جذابا وسهلا، مال إلى الطبيعة بحسه وقلبه، « والتفت إليها بعين تدغدغ الجمال في الظاهرات دون الجواهر، وتنزلق على جمال الظاهرات

[1] كامل الخويسكي: في الأدب العباسي والأندلسي- دراسات ونصوص-، ص71.
[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة:الديوان، ص229.
[3] عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي، دار الأمل للنشر والتوزيع، المدينة الجديدة، تيزي وزو، د ط، 1995م، ص136.
[4] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة:الديوان، ص103.

انزلاق، فلا تتوقف توقف تحليل ولا تتعمق تعمق استيعاب »[1]، فهو يمتاز بتآلف الألفاظ وانسجامها، وقد استخدم البحتري الألفاظ الإسلامية والقرآنية، فيقول في وصف "داريّا" ومدح المتوكل[2]:

أللهِ وَلاّكَ عَنْ عِلْمٍ خِلاَفَتَهُ، وَاللهِ أعْطَاكَ مَا لَمْ يُعْطِهِ أحَدَا

ويقول في مقطوعة غزلية[3]:

وعسى اللّه أن يفرّجَ ما أصـ بتُ فيه، وكُلّ آتٍ قريبُ

كما امتاز أسلوب ابن خفاجة أيضا بالجودة والتمكن من اللغة فكان رفيق الشعر أنيق الألفاظ، يقول[4] في وصف الأندلس وقد وصفها وصفا رائعا جميلا في أسلوب ساحر وخيال محلق وتعبير طريف:

يَأَهلَ أَندَلُسٍ لِلَّهِ دَرُّكُمُ؛ ماءٌ وَظِلٌّ وَأَنهارٌ وَأَشجارُ

ما جَنَّةُ الخُلدِ إِلّا في دِيارِكُمُ؛ وَلَو تَخَيَّرتُ هَذا كُنتُ أَختارُ

**-اللغة**

اللغة هي أداة الفن الشعري ووسيلة إبرازه، فهي تلعب الدور الأساسي في نقل التجربة الإنسانية وتوصيلها، وعلى قدر تمكن الشاعر من استغلال الإمكانات الفكرية الكامنة في اللغة يكون نجاحه في نقل التجارب وتوصيلها.

فلغة البحتري عذبة، يؤثر صحة السبك وحسن العبارة يقول الآمدي: « البحتري أعرابي الشعر.مطبوع على مذهب الأوائل، ما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد، ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام...، إلى أن يقول: « فإن كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك، وحسن العبارة وحلو

[1] حنا فاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب القديم-، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص475.
[2] البحتري: الديوان، مج1،ص540.
[3] المصدر نفسه:مج1، ص317
[4] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص113.

اللفظ، فالبحتري أشعر »[1] والحق أن البحتري كان شاعرا يحرص على جزالة اللفظ وسلامة التركيب اللغوي، فهو القائل[2]، في رسم لوحة لرياض الجزيرة:

سرى البرقُ يلمع في مُزنة تمد إلى الأرض أشطانَها

وكم بالجزيرة من روضةٍ تضاحك دِجلة تُغبانَها

وإذا مضينا نتفحص لغة الشعر عند ابن خفاجة فنجده أيضا يسعى في أغلب الأحيان، إلى انتقاء أرقى الألفاظ وأعذبها وأسهلها ونراه يجنح جنوحا ظاهرا إلى التأنق في العبارة، مثل التأنق في الزينة، وما ذلك إلا بسبب البيئة الأندلسية التي وصفت بالجمال في كل شيء من الرّقة التي كان لها أن تظهر في لغته، فلانت ألفاظه الشعرية، وقد سار ابن خفاجة على درب المشارقة كالبحتري يستعير الألفاظ والمعاني، وإن كان يلبسها في أغلب الأحيان ثوبا جديدا لتظهر في أجمل صورها يقول:[3] في وصف الماء بالأرض في شبه قصة:

ياربّ قطرٍ جامِد حلّى به، نحرَ الثَّرى بَرَدٌ تحدَّر صائِبُ

حصب الأباطحَ منه ماء جامدٌ، غشّى البِلادَ به عذابٌ ذائبٌ

فالأرضُ تضحك عن فلائد أنجم نُثِرَتْ بها والجوُّ جهْمٌ قاطِبُ

ولم ترق الألفاظ في غرض الغزل، والمدح، بل رقت كذلك في وصفه للخمر الذي جاء ممزوجا بألفاظ الطبيعة، ولعل ألفاظ الطبيعة من أكثر الألفاظ دورانا في شعره.

- نلمح في وصف البحتري للطبيعة ذكر للأسماء والأماكن، ومن الأسماء التي وردت في وصفه: نجد، بلقيس، سليمان، علوة في قوله[4]:

أجْبِبْ إلينا بدار " عَلْوَةَ" مِنْ بطياسَ والمشرِفاتِ من أكَمِهْ*

[1] أبي قاسم الحسن بن بشر الأمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحق، أحمد شقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، دت،ج1، ص54.

[2] البحتري: ديوان مج 4، ص 2175.

[3] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص ص 38، 39.

[4] البحتري: الديوان، مج 4، ص2063.

* الأكم: تل من القف وهو حجر واحد

ويقول أيضا في ذكر اسم بلقيس، وسليمان[1]:

كأنّ جنّ " سليمان" الذين ولوا إبدَاعها، فأدقّوا في معانيها

فلو تمر بها بلقيس عن عُرضٍ قالت: هي الصرح تمثيلا وتشبيها

وقوله[2] في ذكر الأماكن (العراق، ودمشق):

قد رحلْنا عن " العرا قِ" وعن قَيْظِها النّكِدْ**

حبذّا العيشُ في "دمشـ قَ"، إذا ليلُها بَرَد !

كما استخدم البحتري الألفاظ الفارسية، مثل لفظة النيروز ويمثل بداية عيد الربيع في قوله[3]:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلّما

وقد نبّه النيرُوزُ في غلس الدّجى أوائل ورد كنّ بالأمس نومّا

ونجد عند ابن خفاجة أيضا ألفاظ من الطبيعة الأندلسية منها:

الرياحين وترمز إلى الحياة والخلود

الروضة وترمز إلى: السعادة

الكواكب: أخذت في أغلبها طابعا جماليا محضا

الغصن: ويرمز إلى الغنى

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق، مج4، ص2416.

[2] المصدر نفسه، مج2، ص708.

[*] النكد: القليل النفع.

**الموسيقى والأوزان والقوافي**

تعد الموسيقى أو الإيقاع جوهر الشعر، وعماده الذي لا تقوم للشعر قائمة بدونه، بل إن الشعر لا يقوم على العاطفة والخيال والأسلوب الجميل وحسب، بل يتطلب وجود موسيقى مؤثرة تنظم ألفاظه وتكون أشبه بالصورة الحسية لهما.

– مال البحتري على أوزان الشعر منها البحر الطويل، والكامل، والبسيط، وكان البحر الطويل أرحب صدرا لأنهن يمده بالنفس الطويل وهو ميدان للوصف والتأمل، وهو القادر على حمل هذه المعاني الجليلة بما يمتاز به من قوة وتلون، تنبع من تكرار تفعيلتي (فعولن مفاعيلن) والتي تزيد من غنائيته وسرد مغامراته. ومثال البحر الطويل في قصيدته يصف معركته مع الذئب وانتصاره عليه[1]:

وليل كأنّ الصّبحَ في أُخرَياتِهِ ... حُشَاشَةُ نَصْلٍ ضَمَّ إفْرَنْده غمْدُ

0/0// 0/0/0// 0/0// 0//0// /0// 0/0/0// 0/0// 0/0/0//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وقد استعمال البحتري البحر الكامل في غرض المدح يظهر في مدحه للفتح بن خاقان.

وعلى خلاف البحتري نجد ابن خفاجة، وقد سار في موسيقاه الشعرية على نهج القدامى كالبحتري في ركوبه البحور الفخمة: الطويل، الكامل البسيط، المتقارب، وهي البحور الأكثر دورانا في الشعر العربي القديم

وقد كان بحر الطويل أكثر البحور استخداما في مختلف مواضع شعره، فنجده مثلا ينظم أبيات قصيدته التي يصف فيها الجبل على تفعيلات البحر الطويل يقول[2] ابن خفاجة:

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج2، ص742.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: ص48.

وأرعنَ طمّاح الذؤابة باذخٍ، يطاولُ أُعنان السّماء بغاربِ

0//0// /0// 0/0/0// /0// 0//0// /0// 0/0/0// /0//

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن فعول مفاعيلن فعول مفاعلن

ويقول ابن خفاجة على وزن بحر الكامل في وصفه للطبيعة[1]:

مهتزّة يرتَجُّ من أعطافِها ما شئتَ من كَفَلٍ يموجُ رداحِ

0//0/0/ //0/0/ 0//0/0/ 0/0/// 0//0/0/ 0/0///

متْفاعل متْفاعلن متْفاعلن متْفاعلن متفاعلن متفاعل

**الموسيقى الداخلية**

حرص الشعراء قديما وحديثا على تنويع إيقاعهم داخل النص الشعري محدثة انسجام صوتي داخلي بما يوافق حالتهم الشعرية ومن الوسائل التي تثري الإيقاع الداخلي، وتعكس الحالة الشعرية للمبدع ظاهرة التكرار.

فقد تميز شعر الطبيعة عند البحتري وابن خفاجة بظاهرة التكرار سواء كان تكرار صوت أم كلمة أم جملة.

نجد في قصائد البحتري الربط بين الموسيقى التي تشمل الوزن والقافية وبين اختيار الكلمات والمشاكلة بين أصواتها ومعانيها، وشاعرنا حريص أن يكون الجرس الصوتي لألفاظه معبرا عن معانيه وموحيا بها، فإذا أراد التعبير عن المعاني العنيفة اختار لها الألفاظ ذات الرنين الصوتي القوي كما في رائيته التي نظمها على بحر الطويل يقول[2]:

ولم أنس وحشَ القصرِ إذ ريعَ سِربُه إذْ وذعرتْ أطلاؤُهُ وجآذرُهُ

فالألفاظ تحمل رنينا صوتيا (وحش، ريع، ذعرت،...).

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق، ص40.

[2] البحتري: الديوان، مج2، ص1046.

كذلك تراه يحرص أن يجعل بعض الحروف تتردد في البيت الواحد لتحدث رنينا صوتيا متناسقا يسيطر على البيت كله على نحو ما نراه في تصوير حالته النفسية الحزينة يقول[1]:

ولو كان سيفي ساعة القّتلِ في يدي ردا القّاتل العجلان كيف أساورهُ

ففي هذا البيت يتردد حرف السين وحرف الفاء ليشيع فيه رنينا حادا كأنه أصداء لتلك الثورة التي سيطرت على نفس البحتري وهو ينظم القصيدة.

ونجده في قصيدة أخرى يعتمد على حرف الغين، ليشير هذا الرنين الغامض الذي يعكس جو البيت يقول[2] [الطويل]:

تخفّى له مغتالُهُ تحت غِرةٍ وأولَى لمنْ يغتالُه لوْ يجَاهِرُهَ

كما نجد الموسيقى في شعر ابن خفاجة، فالشعر لا يكتسب شعريته إلا بوجود الموسيقى، وقد نظم شعره على أوزان الشعر العربي التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي، فالشاعر يتحرك في إطارها.

يعتمد الشاعر كثيرا على بحر البسيط وبحر الكامل وهما بحران يتميزان بالحركة السريعة، وتتحقق الحركة السريعة من خلال توالي الحركات "فعلن" التي تظهر في بحر البسيط مرتين في البيت الواحد.

كما نجد الاهتزاز من خلال انتقال البحر من إيقاع إلى آخر لا يشبه تماما من ذلك انتقال بحر الكامل من (متفاعلن) إلى فعلن، وهو انتقال من حركة سريعة إلى حركة بطيئة.

- ظاهرة التكرار بين أجزاء المقطع الشعري عند ابن خفاجة جاء في قوله[3]:

والنّور* عقدً والغصون سوالفً** والجذع*** زندٌ، والخليج سوار

---

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج2، ص1048.

[2] المصدر نفسه، مج2، ص1047.

[3] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: ص128

* النّور :الزهر

**السوالف: شعر جانبي الوجه

*** الجذع: أصل الشجرة.

(الجذع زندً)= ( النور عقد)، (الخليج سوارَ)= الغصون سوالف

وفي موضع آخر يقول[1]:

قد تحفّ به الغصون كأنّها هُدبٌ يحفّ بمقلةٍ زرقاءُ

فتكرار الفعل ( تحف ويحف)، إنما هو دلالته على تأكيده لمعنى أراده هو أن الأغصان من حوله، تحاول مغازلته وكأنّها أجفان لعين زرقاء، والأزرق إيحاء للون النهر، وتكراره لفعل( تحف )هو الفعل هو لشدة انتباه القارئ إيراد معنى له.

كذلك نجده يكرر في مقطوعة أخرى[2]:

في حين أطربنا الحمامْ عشيّةً فشدّا يغنينا الحمامُ المطرن

تكرار للطرب، وتكرار للحمام فقد أراد به الغناء والطرب كما نجده:

في موضع آخر يكرر لفظة ( طيف)في قوله:

يا حبذا والطيف ضيف طارق طيف على شحطٍ أجده مَزاراَ[3]

في هذا البيت كرر لفظ الطيف والمراد به زائرة وهي محبوبته.

**الصورة الشعرية**

يعد بناء الصورة الشعرية وتشكيلها من أهم الدلالات على إبداع الشاعر وتمكنه، وأداة من أدوات الحكم على ذوقه الفني، حيث ينبع جمال الصورة وإبداعها من عمق خيال الشاعر ونظرته العميقة في الكون وقدرته على الانتقاء والتشكيل لهذه الصورة.

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق: ص 356.
[2] المصدر نفسه: ص 289.
[3] المصدر نفسه: ص 283.

ويلجأ معظم الشعراء عند إنتاج صورهم إلى عمق الخيال، الخيال غذاؤه الحس، وبعد النظر والبحث فيما وراء الظواهر، وهم يحلّقون بفكرهم في الكون من حولهم، « فتبدأ أفكارهم تنسخ خيوط المشاهدة المتباعدة »[1]، والصورة تجسد رؤى الشعراء، وذلك من خلال الواقع عن طريق عملية الإبداع، ويحرص الفنان دوما على إبراز الصورة في ثوب أنيق يتبدى للناظرين من أجمل شكل وأبهى منظر.

ويعد شعراء الطبيعة من أوسع الميادين للصورة وأبرز ما ميزيها النزعة الحسية، حيث تتجلى الصورة الكلية بكل وضوح في تفصيلاتها الدقيقة من حركة وألوان بمختلف الأشكال، وهذا النوع له علاقة وطيدة بمفهوم الصورة الشعرية باعتبار الشاعر يميل إلى التعبير عن الأشياء المجردة بطريقة تجعله يخوض أعماق المدركات والأشياء الحسية، فتراه يعبر عن المدركات المجردة في صورة مظاهر محسوسة، لتترك هذه الصورة أثرا في نفس المتلقي وروحه، وهذا ما سنحاول البحث عليه في شعر البحتري وابن خفاجة.

– ففي قصيدة البحتري التي يصف فيها الذئب يجد القارئ نفسه حين يستمع إليها، أمام صورة مثيرة شائقة، استمد الشاعر معانيها من أعماق نفسه، وطابق فيها بين أحاسيسه الظاهرة والباطنة، فهو يطابق بينه وبين الذئب، فكلاهما يضرب في مجاهل الصحراء وكلاهما جائع؛ عوامل الشر وعوامل الخوف تنتاب كلا منهما، « وغريزة البقاء تستولي كل منهما ،بالصورة التي تتفق مع لون دفاعه »[2] إنها صورة رائعة من صور الصراع النفسي من أجل الحياة.

يقول في مقدمة القصيدة[3]:

سلامً عليكم لا وفاء ولا عهد أمالكم من هجر أحبابكم بدُّ؟

أحبابنا قد انجز البينُ وعدَه وشيكا، ولم ينجز لنا منكم وعدُ

[1] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار النهضة، القاهرة، مصر، دط،دت، ص31.

[2] فوزي عيسى: في الشعر العباسي، ص208.

[3] البحتري: الديوان، مج2، ص740.

وهذه المقدمة يتحدث فيها عن الهجر والقطعية، تمهد لموقف القطيعة بين البحتري وبين الضحاك، فتوعدهم وافتخر بشجاعته وقوته وشبه نفسه بالأسد، وأنه كحد السيف.

ونجد ابن خفاجة قد سار على نهج المشارقة من ناحية ذكر الحيوانات المفترسة وغيرها كالذئب، إذا أبدع الشاعر في وصفه كونه ينبع من خبايا النفس وما تجسده تلك المقابلة بين الشاعر والذئب، من تحديات يستلهم منها الشاعر المعاني الموجودة في نفسه، فيحاول أن يستنطقها من خلال وصف الذئب، يقول ابن خفاجة عند مقابلته بالذئب[1]:

ومفازةٍ* لا نجَم في ظلمائِها يَسرى ولا فَلكٌ بها دوَّارُ

تتلهَّب الشعرى بها وكأنّها، في كفِّ زَنجيّ الدُّجى دينارُ

ترمي به الغِيطانُ** فيها والرُّبى، دُولاً كما يتموَّجُ التّيارُ

والقطب ملتزم لمركزه بها فكأنّه في ساحة مسمارُ

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف الليل الحالك الظلمة ووصف **نجم الشعرى** الذي يبرز وهو يتلألأ ملتهبا بضيائه، والليل يبدو طويلا ثقيلا على الشاعر، إذ يشبهه بالقطب الملازم لمكانه، فلا يبرحه أبدا.

ثم يذكر الشاعر لقاءه مع الذئب في هذه **المفازة** القاحلة وسط أجواء الليل **والبهيم**، فيبدأ تصوير الذئب بما يحمله من صفات معهودة من **مخاتلة** وغدر، وهو الذي يضرب به المثل في ذلك، فيقول: "أختل من ذئب".

يسترسل ابن خفاجة في وصف الذئب، فيشير إلى استعداد الذئب للقائه، فعلى الرغم من الظلمة المخيمة على الأجواء، إلا أن نفاد مقلة الذئب بما تحمله ومن غيظ **وحنق** تنير عتمة اللّيل، يقابلها في ذلك شدّة بأس الشاعر الذي لا يخشى مجابهة الذئب، لكن الشاعر يتجه إلى وصف النجوم التي زيّنت السماء، فكانت كساد

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص117.

* المفازة: الفلاة الخالية من الماء والإنس.

** الغيطان: جمع غوطة، الأرض الكثيرة الشجر والماء.

*** دولا: أي بصورة متداولة.

يرفل به الشاعر وهو يختتم المشهد الليلي الطويل، متأملا أن ينبلج عن صباح منير يبدد تلك الظلمة القاسية ويقول[1]:

يسري، وقد نَضَجَ الذي وجهَ الصّبا في فروة قد مسَّها إقشعرارُ

فعشوتُ في ظلماءَ، لم تُقدح بها، إلاَّ لمقلتهِ ويأسي نارُ

ورفلتُ في خُلعٍ عليّ من الدُّجى عُقدت لها من أنجمٍ أزرارُ

واللّيلُ يقصُدُ خطوَهُ ولربّما طالت ليالي الرَّكبِ وهي قِصارُ

قد شابَ من طرق المجرَّةِ مفرقٌ فيها ومن خطّ الهلالِ عِذارُ

تبدو النهاية التي اختتم الشاعر بها قصيدته غير مكتملة، إذ كان بالأحرى أن تتوج تلك المقابلة بظفر أحد الطرفين، لكن الذي يلمح من هذه الخاتمة، اشتراك الشاعر والذئب بالخوف من هذا الليل المطبق بسوداويته، فكأنها مواساة للغربة النفسية التي ألمت بهما في ليل بهيم لا يكاد يمضي ليجتاز هذه المحنة.

ارتبط اللون بالصورة الشعرية عند الشعراء والذي يمثل البؤرة التي يصب فيها الشاعر إبداعه، معتمدا على الخيال أو الرؤية التي تحيد اهتمام النقاد باعتبارها المدخل الأول للكشف عن أصالة التجربة الشعرية، وقوة اللفظ والمعنى الذي يقول عنه أبو هلال العسكري: « الألفاظ أجساد والمعاني أرواح »[2].

نلمح في شعر البحتري توظيفه للألوان في قوله[3]: « يصف فرسا بأنه أشقر:

فأعن على غزو العدُوِّ بمنطوٍ أحْشاؤُهُ طيَّ الكتابِ المدْرِجِ

إما بأشقر سَاطع أغشى الوغَى منه بمثل الكوكب المتأجج

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق: ص118.

[2] أبو هلال العسكري: الصناعتين، الكتابة والنشر، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ص167.

[3] البحتري: الديوان، مج1، ص ص 402،403.

وفي موضع آخر يصفه بأنه أسود فيقول[1]:

وأسْوَدّ ثم صَفَتْ لعيني ناظرٍ جنباتُه، فأضاءَ في إظلامه

ويقول[2]:

أو أدهم صافي السواد كأنّه تحت الكمي مظهَّرٌ بيرندج

ويقول أيضا[3]:

أو أشهب يقق يضيء وراءه متن كمتن اللّجّة المترجرج

وبالمقابل نجد ابن خفاجة، وقد أجاد في وصف المناظر الطبيعية مستفيدا من الألوان المختلفة، ومن أبرز الشواهد على إكثار ابن خفاجة من استعمال الألوان في شعره وجود قصائد كثيرة التزم الشاعر في معظم أبياتها باستعمال الألفاظ الدالة على الألوان.

ومن بين الألوان التي وظفها ابن خفاجة في شعره اللون الأسود في قوله[4]:

من ليلة أرخى عليّ جناحَهُ فيها غرابُ دُجُنّة لم يُزجَرِ

وقوله[5]:

وليل كما مدّ الغرابُ جناحه وسالَ على وجهِ السّجلِّ مْدادُ

فابن خفاجة لم يأت بصورة مباشرة، بل يحضر قرينة تدلنا عليه، فتوظيف اللون هنا يحمل قدرا كبيرا من العناصر الجمالية، وإضاءات دالة تعطي أبعادا فنية في العمل الأدبي على وجه الخصوص، وهو ما ينجلي لنا في البيتين السابقين، إذا جاء اللون الأسود انعكاسا للسوداوية التي تغطي نفسية الشاعر، ولم يجد إلا الغراب بلونه الأسود، فهي صفة جامعة تتشابه وحالته، وهذه السيطرة اللونية للون الأسود بدت واضحة في الكثير من أبيات

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج 3، ص1990.
[2] المصدر نفسه: مج 1، ص403.
[3] المصدر نفسه: مج1،ص403.
[4] إبراهيم بن ابي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص108.
[5] المصدر نفسه: ص79.

ابن خفاجة، موظفا لون الغراب الأسود، إذا كان الموقف يتعلق بظلام الليل، فيكشف لنا نفس الشاعر البائسة، وكأن به يحاكي قول امرئ القيس في معلقته[1]:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل.

وقوله أيضا في مقطوعة، يصف نهر من خلال توظيفه للألوان وقد استعملها في تأسيس أركان صوره الشعرية[2]:

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء*

متعطف** مثل السّوارِ كأنّه والزّهر يكنُفُهُ مجرُّ السّماءِ

قد رقّ حتى ظُنّ قرصا مفرغا من فِضّة في بُردةِ خضراءِ

وغدت تحفّ به الغصون كأنها هُدْبٌ يحقّ بمقلة زرقاءِ

ولطالما عاطيت فيه مدامةً صفراء، تخضِبُ أيدي النُّدماءِ

هنا ابن خفاجة يستعمل تعدد الألوان وتوسيع دلالاتها الموحية في صورة الشعرية، فالألوان تعددت، خضراء، زرقاء، صفراء تخضب، ذهب، لجين، فضة، فهذه الألوان تنزاح عن لونها الظاهري للعين إلى لون ينساب نفسية الشاعر وحالته الشعرية.

وقد لاحظنا أن اللون الأسود قد شغل حيزا كبيرا، حتى صار سمة مهيمنة طغت على باقي الألوان، فانعكس واقع حياته بتناقضاته وما به من إشكالات على ذات ابن خفاجة والذي تمثل في: الخوف من الموت، ذهاب الشباب وفقدان الأصحاب، فظلت الغربة النفسية الداخلية تلازمه، ليلتصق به اللون الأسود.

---

[1] امرئ القيس: الديوان، دار صادر، بيروت، ط3، 2007، ص49.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص12، 13.

* لمى الحسناء: كناية عن سمرة شفتيها

** متعطف: أي يجري منثنيا وينساب متعرجا كالسوار.

ومن خلال هذه النماذج نقول: إن ابن خفاجة انتبه إلى الألوان بعين واعية وحس مرهف إذ تظهر مهارته في استخدام الألوان وبراعته بالانتباه إلى اختلافها فلها دور في التشكيل اللوني والأثر الجمالي.

اعتنى البحتري بالصور الكلية أو الإجمالية في وصف الرياض كمنظر عام، وبعد ذلك يبدأ في التفصيل ويستصقي ويتوقف أمام الجزئيات، فترى الزهور أو النور الأبيض وقد بدا كالنسج الموشي الذي يوافق مرآة القطع الحريرية، وقد تناسقت ألوانها في نظام بديع فبدت كالنقوش يقول في وصف الرياض[1]:

هذي الرياضُ بَدَا لطرفِك نوْرُها فأرتْكَ أحسن من رباط السّندسِ

ينشرْن وشيا مذهبًا، ومدبّجًا ومطارفًا نُسجت لغير الملبسِ

وأرتْك كافورا، وتِبرا مُشرقًا في قائم مثل الزّمرُّد أمْلسِ

متمايِلَ الأعناقِ في حركاته كَسَلَ النّعيم، وفترةَ المتنفّسِ

أما ابن خفاجة فعلى خلاف البحتري نجده يعتني بالجزئيات، كالزهرة والنسمة، لكنه لم يتوقف عندها فقط، بل وصف المنظر الطبيعي، فوصف الحديقة والروضة بما فيها من زهور وأشجار وسماء وجداول وما يتخللها من نسيم ويمضي ابن خفاجة على رسله، في وصف شجرة بعينها، فيصف شجرة آراك، وهو مغرم بمجاري المياه ووصفها، فيصف لنا الجدول الذي يحف بالآراكة وصفا جميلا، ثم يجنح إلى وصف الروضة، التي تؤلف شجرة الآراك إحدى مفاتنها فيقول[2]:

وَأَراكَةٍ ضَرَبَت سَماءً فَوقَنا تَندى وَأَفلاكُ السماء تُدارُ

حَفَّت بِدَوحَتِها مَجَرَّةُ جَدوَلٍ نَثَرَت عَلَيهِ نُجومَها الأَزهارُ

وَكَأَنَّها وَكَأَنَّ جَدوَلَ مائِها حَسناءُ شُدَّ بِخَصرِها زِنّارُ

زَفَّ الربيع بِها عَروسَ مُدامَةٍ تُجلى وَنُوّارُ الغُصونِ نِثارُ

[1] البحتري: الديوان، مج2، ص ص 1179،1180.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص115.

في رَوضَةٍ جِنحُ الدُجى ظِلٌّ بِها وَتَجَسَّمَت نَوراً بِها الأَنوارُ

نلمح في شعر البحتري ذكر الأسماء والأماكن منها: بطياس، العراق، دمشق في قوله[1]:

أحبّب إلينا بدار "علوة" من بطياس والمشرفات من أكمه

باسط روضٍ تجري منابعه في مُرْجَحِنّ الغمام منسجمهْ

كما تغنى البحتري في قصيدة أخرى بطبيعة دمشق الجميلة، فيقول[2]:

أما "دمشق فقد أبدت محاسنها ووقد وفى لك مطربها بما وعدا

وقد وصف البحتري دجلة في معرض وصف منزله بالعراق فيقول[3]:

منزلٌ لي بالعراق اخترتهُ لم يشُبْ حُرٌّ يقيني فيه شكْ

وإذا " دجلة" مدّت شأوما وجرت جري اللّجين المنسبكْ

كما تغنى ابن خفاجة بشقر وبلنسية فيصور تصويرا يعرب عن تفنن وبراعة لما يصوغه من معاني في بناء قصيدته يغلب عليها طراوة الندى والظل، فقال[4]:

فيا بردَ ذاك الماء منك قطرةٌ فها انا استقى غمامك صاديا

وهيهات حالت دون شقر وعهدها ليالٍ وأيامٌ تمحال لياليها

فيا راكبا مستعمل الخطر قاصدًا ألاعجْ بشقر رائجًا ومغاديًا

ويذكر أيضا بلنسية وقد أثرت في نفسه وأثارت عواطفه في قوله[5]:

كان بلنسية كاعبٌ وملبسها السّندس الأخضرُ

إذا جئتها سترتْ وجهها بأكمامها، فهي لا تنظرُ

[1] البحتري: الديوان: مج4، ص2063.
[2] المصدر نفسه: مج 1، ص542.
[3] المصدر نفسه: مج 3، ص1564.
[4] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص6.
[5] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

لجأ البحتري إلى الفن القصصي في تصوير الطبيعة المحيطة به، فقد اعتمد الشاعر على الحوادث في وصفه، معبرا فيها عن أفكاره وعواطفه متخذا إياها كوسيلة من وسائل التجسيد، واعتماده الحوادث، وتتجلى النزعة القصصية في وصف البحتري على وجه الخصوص في وصفه **لقصر النهري**، تطرق الشاعر إلى تصوير ما كان يدور أحيانا داخل القصر من غناء وطرب وشراب ومنادمة، وكان الناس جالسين، والقسم الآخر كانوا واقفين، وأشار إلى الصيادين الذي كانوا يترقبون الطيور المحلقة في الجو فلا يدعونها تطير إلا لمدة قصيرة، وقد كان مصدر إلهام البحتري، إذ شبهه بجبل شاهق لعلوه وشموخه، فيقول أبياتا من قصيدته[1]: [ البحر الطويل ]

أبَى يَوْمُنَا بالزَّوّ، إلاّ تَحَسّناً لَنَا بِسَمَاعٍ طَيّبٍ، وَمُدامِ

غنِينَا عَلى قَصْرٍ يَسِيرُ بِفِتْيَةٍ قُعُودٍ، عَلَى أرجَائِهِ، وَقِيَامِ

وتشبيهه بالجبل يقول[2]:

ولا جبلاً كزو يوقف تارة وينقاد إما أته بزمامِ

من المعروف أن الشاعر كان يحضر مجالس الخلفية فيصف يومه بأنه كان رائعا طيبا إذا ما كانوا داخل هذا القصر الجميل، حيث الكلام الحسن الرقيق والمشروب الوفير اللذيذ، فيصور كيف احتضن القصر المغنيين والمطربين، والصقور البيض التي كانت تحوم فوق هؤلاء المغنيين، وهي تلاحق طائر الدراج مهما كان ارتفاعه، وتأتي مخضبة القوادم ملونة بدم الطائر، يقول[3]:

تحذر بالدّراج من كل شاهق مخضّبة أظفارهنّ دوامِ

وقد تجلى الأسلوب القصصي في شعر ابن خفاجة وذلك في **وصف الجبل**، كان خياله الشعري يتتبع ذلك الجمال المنتشر بين السهول الفسيحة والأنهار والجبال، فيصور تلك المناظر الفاتنة كما يشاء ويضفي عليها

[1] البحتري: الديوان، مج3، ص2002.

[2] المصدر نفسه:ص2002

[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

ذلك الإحساس الرقيق وتلك اللمسات السحرية مبينا ومضات الجمال التي تموج بها تلك الطبيعة الرائعة، وما قصيدة الجبل إلا إحدى روائع ما كتبه ابن خفاجة في وصفه للطبيعة.

فقصيدة الجبل رسمت فيها عبقرية ابن خفاجة لوحة فنية بديعة أنيقة الألوان محيطة بكل تفاصيلها وجزئياتها، ناشرة حولها ظلالا من التأمل النفسي العميق، ليجد فيها القارئ متعة وجدانية فكرية تحلق به في آفاق سامية من التأمل، متجولا بين الصورة المتحركة التي تمر بها القصيدة، مستمتعا بذلك الحوار بين ابن خفاجة والشيخ الوقور، يقول[1]:

وأرعنَ طمّاحِ الذُؤابةِ بَاذخٍ يُطاولُ أعنانَ السماءِ بغاربِ

يَسدُّ مهبَّ الريحِ من كلّ وجهةٍ ويزحمُ ليلاً شُهبهُ بالمناكبِ

وقُورٍ على ظَهرِ الفلاةِ، كأنهُ طوالَ الليالي مُفكِرٌ بالعواقِبِ.

يلُوثُ عليهِ الغيمُ سُودَ عمائمٍ لها منْ وميضِ البرقِ حُمرُ ذوائبِ

أصختُ إليهِ وهوَ أخرسُ صَامتٌ فحدثِني ليلَ السُرَى بالعَجائبِ

ويصف ابن خفاجة الجبل **وماعاناه** في رحلته وهو يسير ليلا تتقاذفه الرياح وظهور **النجائب** وتسلمه الصحاري والقفار واحدة تلوى الأخرى، وتلفه وحشية الانفراد والظلمة القاتمة، لا يؤنسه في وحشته إلا أمانيه ولا تعاينه على هول الصعاب إلا حسامه يضاحك نور الأماني، متسائلا عن صاحب يقص له أخبار رحلته.

وكل ذلك في قوله[2]:

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب تحب برحلي أم ظهور النجائب؟

فما لحت في أولى المشارق كوكبا فأشرقت حتى جئت أخرى المغارب

وحداتها داني الفيافي فأجتلي وجوه المنايا في قناع الغياهب

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص48.

[2] المصدر نفسه: ص ص 48،47.

ما جرى إلاّ من حسامٍ مصمم، ولا دار في قتودِ الركائبِ

ولا أنس إلاّ أن أضاحك ساعة ظهور الأماني في وجوه المطالب

ففي هذه الأبيات يصف لنا الشاعر رحلته وما تلقاه من متاعب وما صادفه من أهوال، وهو وحيد لا رفيق ولا أنيس في وحشته إلا حسامه، ثم ينتقل الشاعر للحديث عن الليل فيقول[1]:

وليل إذا ما قلت باد فانقضى تكشف عن وعد من الظنّ كاذبِ

سحبتُ الدياجي في سود ذوائبِ لأعتنق أمال بيض ترائبِ

فمزقت جيب اللّيل عن شخص أطلس تطلع وضاح المضاحك قاطبِ

رأيت به قطعا من الفجرِ أغبشا تأمل عن نجمٍ توقد ثاقبْ

ثم ينتقل ابن خفاجة للحديث عن الجبل ووصفه، وكان قد اعتاد المرور به والمكوث عنه يختلي بنفسه، وحينها يتأمله بعمق ويأنس به متأثرا بشموخه وعظمته وقد وصفه على أنه شيخ كبير قد عاركته الحياة وذاق خلوها ومرها، فقد أثار الجبل كوامنه، ورأى فيه صورة من ذاته، فاتخذ صديقا يؤنس وحدته بعد أن عز عليه الأنيس والجار، ولم يكتف بذلك بل خلع عليه أحاسيسه وعواطفه، وامتزج امتزاجا تاما، فمنحه صفاته الخُلقية والخِلقية فإذا هو ذلك الشيخ الوقور يواجه العواصف والرياح النكباء مثله[2]:

ولا طم من نكب الرياح معاطف وزاحم من خضرِ البحار غواربِي

ثم ينتقل للحديث عن سمات ذلك الجبل فيقول[3]:

أصخت إليه وهو أخرس صامتُ فحدثني ليل السرى بالعجائبِ

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق، ص48.

[2] المصدر نفسه: ص48.

[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

فهذا الجبل، أخرس، صامت وهو يحدثنا عن خبرته الطويلة من الأحياء والحياة وعمامر به من أحداث، فحديثه مليء بالحكمة وهذا الجبل الذي ينبض بالحياة فالرياح تلاطمه والبحار تزاحمه، والجبل مقاوم شرس لا يستكين، ثم ينتقل للحديث عن نوح الأشجار. وعن فزع الحمام، من المصير المفزع فيقول[1]:

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوح ورقعة غير صرخة نادب

وهنا يكشف النص عن مغزاه أو أبعاده الحقيقية، فيعكس تجربة الذات الشاعرة المهمومة بقضايا الوجود والموت والمصير، وقد بدت غير قادرة على استيعاب حقيقة الموت، فقدت تماسكها وأصابها الذعر والسأم وهي ترى الأمل والأحباب والأصحاب يرحلون عنها بلا عودة، ووجدت نفسها وقد امتد بعا العمر، تقف وحيدة كالجبل، تتلقى ضربات العواطف من كل اتجاه، ويحاصرها الظلام، وتستحيل الحياة أمامها إلى صحراء قاحلة موحشة وهنا يبدو الحلم بالرحيل إلى الشاطئ الآخر- حيث الأحباب الراحلون- هو الملاذ أو الأمل الذي تعتنقه، ولكنها حين وجدت لها شبيها في المعاناة (الجبل)، استشعرت العزاة والسلوى، ووطنت النفس على تقبل الواقع بعد أن أدركت في نهاية الأمر أنه لا مفر من التسليم بحقيقة أن الأحياء مندرون للموت، وأنهم بين "مقيم" وذاهب.

وهكذا اختلفت نظرة ابن خفاجة للطبيعة، فلم ينظر إلى أحد عناصرها باعتباره موضوعا وصفيا خارجيا، بل امتزج به، خلع عليه عواطفه وأحاسيسه، كان ابن خفاجة هو ذلك الجبل الذي تململ من طول البقاء وهو يشاهد مواكب الإنسانية ترحل أمامه موكبا إثر موكب إلى غير رجعة.

لذلك فالقصيدة تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسي، هي هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة، كما استطاع ابن خفاجة في هذه القصيدة أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق: ص49.

الشعر العربي القديم، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة، « وأدرك ما يسمى عند الفرنجة "بحس الطبيعة"»[1] فالقصيدة تمثل شعرية ذاتية وقصة شعرية قصيرة.

وفي موضع آخر حاول ابن خفاجة أن يصنع الصنيع ذاته مع القمر، فمضى الشاعر في خطابه الجديد للقمر الذي يعكس لهفة الذات إلى الأنس والألفة والطمأنينة في وحدتها وشيخوختها، كما يعكس ظمأها إلى معرفة المجهول والوقوف على ما غمض من أسرار الوجود واكتشاف لغز الحياة والموت الذي عجزت عن اكتشافه طوال حياته.

يقول ابن خفاجة مخاطبا القمر[2]:

وقد ملأت سواد العين من وضح فقرط السّمع قرطًا الأنس من سمرٍ

فلو جمعت إلى حسن محاورةٍ حزت الجمالين من خُبْرٌ ومن خبرٍ

عن صممت ففي مرآك لي عظةٌ قد أفصحت عنها الألسنُ العبرِ.

في هذه الأبيات نكشف عن أجواء التوتر والتناقض والصراع المحتدم داخل الذات، فقد أسلمها الموقف التأملي إلى الحيرة وضاعف من أزمة الخوف والشك والوحدة التي تحاصر النفس الإنسانية.

إن ابن خفاجة لا يستوقفه القمر من حيث وظيفته أو ما يفيض به من ضياء يبدد الظلام، ولا يلتفت إلى جماله وحسن منظره وهيئته بل يلتفت إليه في إطار حكمي أو تأملي أو فلسفي، « فيتوقف أمام ما يعرض له من حالات النقصان والزيادة، والغياب والحضور، ويطرق في معنى كسوفه وإقماره، وعلة إهلاله وسراره، ولزومه لمركزه مع انتقال مداره »[3]، أي أنه ينظر إليه في إطار محاولة استكناه الحقائق الكونية الكبرى، ومساءلة القضايا الوجودية، ويقف أمامه وقفة مهابه وخشوع، ولكنه لا يكتفي بذلك، بل يسعى إلى إيجاد علاقة قدرية بين القمر والإنسان من خلال الربط والمقارنة بين حالات القمر في تغيرها وتناقضها، وما يعرض للإنسان في حياته من

[1] فوزي عيسى: في الأدب الأندلسي، ص187.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص112.

[3] فوزي عيسى: في الأدب الأندلسي، ص194.

تقلبات وأحوال فقد تجلى لنا بوضوح أن ابن خفاجة لم يتعرض البتة لوصف البدر، وإنما كان عرضة مخاطبة هذا الكوكب الصامت الأبكم، وكانت قصيدة القمر نتاجا لإثارة نفسية تعرض لها الشاعر في غربته أي في سفر من أسفاره.

وفي هذه اللحظة ينتقل ابن خفاجة في مناجاته للقمر نقلة أخرى قائلا[1]:

تمر من ناقص حوار ومكتمل قوار ومن مرتقٍ طورا ومنحدر

والناس من المعرضين يلهى،ملتفت يرعى من ذا هل يأس مذّكرِ

يلهو بساحات أقوام تحدثنا وقد قضوا مضوا إن على الأثرِ

فإن بكيت وقد يبكي الخليل فعن شجوٍ، يفجّر عين الماء في الحجر

وإذا نظرنا من جانب آخر للقصيدة فإننا لانجد قيمة جمالية في نفس الشاعر اتجاه القمر وإنما نرى أن هناك الصورة التي تربط بين الطبيعة ومخاطبته لها عن طريق القمر، نظرا لما تثير من شعور بالفناء أي أنه « شبه الغناء بإخفاء القمر، وفي هذه الوقفة بكى الشاعر خوفا من الموت، وخوفا على الحياة، ولم يجد العزاء في فناء القمر مثلما وجده في فناء الجبل »[2]

حاول ابن خفاجة أن يلتمس الصديق المؤنس في الطبيعة، فاتخذ الجبل رفيقا ونجح في استنطاقه، وحاول مرة ثانية مع القمر لكنه عجز عن ذلك لأن القمر سماوي، ولأنه محاط بهالة من القداسة، ولذلك لم ينجح في محاورته، إلا من خلال المناجاة الصامتة.

وبعد التمتع لمعنى المضمون، فإننا نجد الشاعر يصور صور جميلة عن القمر بذلك الجمال الفاتن للقمر، اعتبره ضياء يزري بكل ضياء، وبذلك أسدل نوره الساطع على النجوم البراقة، وبعذ ذلك خاطبه على أنه إنسان

[1] إبراهيم بن أبي فتح ابن خفاجة: الديوان، ص112.

[2] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2011م، ج2،ص168.

يستنطقه متغزلا به كيف لا وقد امتلك كل مقومات الجمال، حتى خيّل إليه أن القمر يحاوره جاعلا منه حكيما له، ومن ثم يصفه عندما يكون هلالا إلى أن يصبح بدرا مكتملا.

– يكثر البحتري من استخدام التشخيص والتجسيد والتجريد، وتصوير الطبيعة على هيئة إنسانية، مفعمة بالحركة والحيوية، فالشاعر العباسي في أحيان كثيرة يتحول من وصف الصحراء من حيوانها، وأشجارها إلى وصفه للأنهار والبحار.

وكان البحتري شغوفا بالطبيعة المائية تأملها وتتبع مظاهر جمالها كل ذلك هيأ له أن يكون شاعر الطبيعة المائية، وقد أفاض في وصف المائيات، وكثرت مقطوعاته الشعرية التي وصف مظاهرها.

وللبحتري في **وصف البركة** صور بديعة، دقيقة التصوير والتي تعد واحدة من مظاهر الحضارة الجديدة في البيئة العباسية. « ولعل هائيته في مدح الخليفة المتوكل هي عروس قصائده في وصف المائيات »[1]، واستطاع الشاعر أن يبلور إعجابه الفائق ليس بالبركة فحسب، وإنما ما يتصل بها من مفردات الطبيعة النابضة، فينهل من النسيم والسماء والنجوم والشمس والسحاب والأمطار.

فهذه البركة صناعية، من صناعة الجن، لها من الجمال والروعة ويغار دجلة وبياهيا، وقد صور لنا الشاعر المياه وهي تسقط منها وكأنها خيل خارجة من حلبة سباق وقد صفت مياهها وشفت وكأنها سبائك الفضة المذابة وتتماسك بفعل مداعبة النسيم لها من جديد لتشكل درعا قويا، وأمدها بالمياه من خلال قنوات عديدة ووضع فيها الأسماك، ورسم على جدرانها صورا، وكأن الشاعر بهذه الصورة يشير على قوة البيت العباسي وحصانته كما يصور لنا الشاعر هذه البكرة على أنها مصممة بحيث تنعكس أشعة الشمس سطحها، وهي رائعة حين ينهمر فيها ماء المطر، فالبركة صورة لعظمة الخليفة الذي بناها، وهي ثمرة من ثمار الحضارة التي ينعم بها الناس ووجد الثلج مكانا له في الشعر الوصف عبد البحتري، وأعرض من جديد لوصف الشاعر الجميل لقلعة جبلية تقع في بلاد

[1] مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص718.

الروم، وقد نزلت عليها الثلوج فبدت كالمرأة تقدم بها العمر وغطى رأسها الشيب، فوجه الشبه هو شدة البياض فيقول[1]: [ الخفيف ]

حين أبدت إليك "خرشنة العل يا"، من الثلج هامة شنطاءُ

وقد وصف البحتري **دجلة** في معرض وصف منزله بالعراق فالتفت إلى اتساع النهر وامتداده وجريان مياهه التي تشبه في نقائها الفضة والأمواج التي تبدو كالدروع فوق صفحته والتخيل المنتشر حول ضفتيه والقمارى التي تغني ويتردد غناؤها في جنباتها.

يقول[2]:

منزل لي بالعراق اخترته لم يشب حرا يقيني فيه شكُ

وإذا دجلة مدّت شاوها وجرت جرى اللجين المنسبك

عارضت ربعي يفيض مزيد بين أمواج تسامى وحبك

يتكفّا النخل في حفاتها بالقمارى تغني أو تبك

وفي موضع آخر:

فقد أعطى البحتري اهتماما فائقا للأنهار **كنهر دجلة** فوصف الرحلة النهرية في دجلة كقوله[3]: [ البسيط]

إليك يعد وصال البيد أوصلنا آذيٌّ دجلة في عير من السفن

غرائب الريح تحذوها ويجنبها هاذي من الماء منقادا بلا رسن

جئناك نحمل ألفاظا مدبجة كأنما وشيها من يمنة اليمن

[1] البحتري: الديوان، مج1، ص18.
[2] المصدر نفسه: مج 3، ص1564.
[3] المصدر نفسه: مج 4، ص2194.

هنا يتخيل البحتري أمواج دجلة وقد أوصلته في قافلة من السفن إلى الممدوح، و« لعل التشديد، في قوله (آذي) رمز للجهد الشاق الذي كلف الشاعر به نفسه من أجل الوصول إلى الممدوح »[1].

ونلاحظ أن الشاعر أضفى على السفن الصفات الصحراوية فوصفها بأوصاف الإبل والخيل كقوله: (عير) و(نحدوها) و(بلا رسن)

وكثيرا ما يأتي وصف الأنهار من خلال وصف الشاعر للقصور والمنازل العباسية التي كانت تقام على ضفاف الأنهار، وقد أضفت عليها البحتري ثوبا جديدا يقول البحتري في قصيدة مدح فيها الخليفة المعتز ووصف قصره المسمى **بالساج** قائلا[2]:

وكأن قصر" الساجّ " خلة عاشق برزت لرامقها بوجه مشرقِ

قصر تكامل حسنه في قلعة بيضاء واسطة ولبحر محدق

نجد البحتري حريصا أشد الحرص على ان يبين قصر ممدوحه ومعظم قصور الخلافة كانت تقام على ضفاف الأنهار، ولعل ذلك للإشعار بالخير والعطاء والنماء، وكان دقيق التصوير.

إن البحتري يقف مدهوشا. أمام عظمه قصر (الكامل) فيصف ارتفاعه الشاهق، حتى أن الحمام الذي يترنم فوقه يشعر بالذعر والخطر من سموه وقد ارتفع أعمدته وأسقفه وبهر الأعين بعجائبه وبديع صنعه يقول[3]:

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر الزلة هائل

رفعت لمنحزق الريّاح سمُوكُهُ وزهت عجائب حسنه متخايل

ويواصل البحتري في وصفه للقصر الكامل، فيقول[4]:

لبست من الذّهب الصقيل سقوفه نورا يضيئ على الظّلام الحافل

[1] مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء من العصر العباسي، ص109.
[2] البحتري: الديوان، مج 3، ص1483.
[3] المصدر نفسه: مج 3، ص1648.
[4] المصدر نفسه: مج3،ص1649.

إنها صورة رائعة، كأن سقوفه الذهبية أشعة الشمس المضيئة التي تخيل الظلام نهارا، وتحار العيون وهي تشاهد هذا القصر الباذخ بسقوفه الذهبية.

كما نجد ابن خفاجة يكثر أيضا من استخدام التشخيص والتجسيد في شعره لأن طبيعة الأندلس الخلابة والتي كست وديانها، وجبالها كانت ملهما للأدباء، ومنهلا ينهلون منها صورهم وتشبيهاتهم، وينمون من خلال الطبيعة خيالهم.

افتتن ابن خفاجة بالأنهار، كما افتن بغيرها من عناصر الطبيعة الأخرى إلا أن أشعاره في الأنهار قد فاضت لأنه يعيش في بيئة مائية، ومن الأنهار المشهورة نجد نهر مرسية، ونهر اشبيلية الأعظم.

تغنى ابن خفاجة بالأنهار وبالمياه الجارية لما لها من رونق وجمال، ولما في مشاهدتها من متعة فهي تحمل هموم يومهم بين تيارات أمواجها، وتسير بأحلامهم عبر بساتينها، ورياضها.

وقد أجاد ابن خفاجة في وصف جمال منظر النهر يقول فيه[1]:

لله نهر سال في البطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء

متعطّفٌ مثل السّوار كأنّه والزهر يَكنُفُهُ مَجَرُ سماءِ

قد رقّ حتّى ظنّ قرسا مفرغًا من فضّته في بردة خضراءِ

وغدت تحفّ به الغصون كأنّها هذب تحف بمقلة زرقاء

ولا ربما عاطيت فيه مدامةً صفراء تخضب أيدي الندماءِ .

استهل الشاعر قصيدته بالتعجب من منظر النهر، حيث صوره لنا بأسلوب رائع وكأنه حاضر أمام عينيك.

وقف الشاعر مفتونا في مياه النهر وينظر إليها من جانب آخر ويربطها لمفاتن المرأة الحسناء ويصور المشهد لنا، فيرى تلك الأغصان التي تنمو على ضفتي النهر، والماء ينساب من بينها كالعين من حولها الأهداب.

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص ص 12،13.

اعتاد شعراء الأندلس على تجسيد مفاتن المرأة في وصفهم للطبيعة فالمرأة كانت ومازالت تمثل قيمة جمالية، فضلا عن كونها معنى ساميا من معاني الارتباط الروحي في حياة الإنسان.

ثم وصف لنا المتعطف وهو الذي يجري مثنيا وينساب متعرجا كالسوار وشبهه بالزهر الذي يحيط به مجرى السماء، ويصور لنا أيضا لمعان الفضة وكأنه ثوب اخضر مثّل جمال وروعة الطبيعة الخلابة البهية.

وقوله يصف الخمر[1]:

وَلَطالَما عاطَيتُ فيهِ مُدامَةً صَفراءَ تَخضِبُ أَيدِيَ النُدَماءِ

وصف الشاعر الخمر الذي يحتوي على لون اصفر والذي تلوثت به أيدي الندماء.

وفي الأخير ختم ابن خفاجة بوصفه للطبيعة، حيث أنه وصف الغصون التي تنكسر بسبب الرياح التي تجري بسرعة قوية في وقت المساء أي قبل غروب الشمس التي تنبعث منها الشعاع الذهبي والمياه العذبة التي شبهها بالفضة.

ويقول[2]:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لُجَيْنِ الماء

ويقول في موضع آخر[3]:

وَقَد غَشِيَ النَبتُ بَطحاءَهُ كَبَدوِ العِذارِ بِخَدٍّ أَسيلِ

وَقَد وَلَّتِ الشَمسُ مُحتَثَّةً إِلى الغَربِ بِطَرفٍ *كَحيلِ

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق: ص13.

[2] المصدر نفسه، ص 13.

[3] المصدر نفسه: ص183.

*الطرف: العين

لقد أحب ابن خفاجة الجواري الحسان وأكثر من ربط مفاتنهن بالطبيعة فقد أعجب بمنظر أغصان النبات، وقد أعجب بمنظر أغصان النبات، وقد نمت على البطاح، فطار به الخيال إلى خدود العدارى، ووقف في وقت الأصيل ليشاهد جمال منظر النهر وقد عشيته حمرة شمس الأصيل.

ويقول أيضا[1]:

أَلا أَفصَحَ الطَيرُ حَتّى خَطَبوَخَفَّ لَهُ الغُصنُ حَتّى اِضطَرَبْ

فَمِل طَرَباً بَينَ ظِلٍّ هَفا* رَطيبٍ وَماءٍ هُناكَ اِنثَعَب**

الشاعر شده انتباه الطير الذي يقفز بين الغصون، ويغرد بأجمل الألحان لتلامس حسا مرهفا وأذنا متذوقة، فكأنما الطير تكلم، وشرع بالغناء، وكيف لا يحلو له الغناء والطرب وهو تحت ظل الأوراق، وأمامه ذلك النهر يجري.

ويقول أيضا في وصف مفاتن الطبيعة وهو يجوب في أرجائها[2]:

وَكِمامَةٍ حَدَرَ الصَباحُ قِناعَها عَن صَفحَةٍ تَندى مِنَ الأَزهارِ

في أَبطَحٍ رَضِعَت ثُغورُ أَقاحِهِ أَخلافَ كُلِّ غَمامَةٍ مِدرارِ

اتجه الشعراء إلى الطبيعة ووجدوا في صفاء النهر وانسيابها راحة البال ومتعة للأبدان، كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية، « وفي أحضانها استسلم للهو وحبه للخمر، وعطف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذا الخمر من إطار الطبيعة مقدما لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان »[3].

كانت هذه الرياض مسرحا لحياة الأدباء اللاهية فكانوا يقيمون في رحابها مجالس الأنس والشراب، ولهذا ارتبطت هذه المجالس بالطبيعة الأندلسية وعموما فالنهر وجمال منظره رمز للعطاء والكرم، فهو لا

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق: ص53.

* هفا (الظل): خفق

** انثعب الماء: سال

[2] المصدر نفسه: ص107.

[3] كامل خويسكي: في الأدب العباسي والأندلسي، ص ص 69- 70.

يبخل بالعطاء عندما تمده السماء بالأمطار ويفيض بالماء، فيوزع المياه على ما حوله من أراضي وبساتين ورياض بالعدل.

شكل الليل مصدر إلهام الشعراء، باعتباره صديق الشعراء، وملاذا آمنا للتعبير عن خلجات الصدر ومكونات الروح، حيث نجد البحتري يتفنن في تصوير الليل، ففي قصيده الذئب يحدد الشاعر زمن المعركة وهو أخريات الليل وغبش الفجر، وقد سار البحتري في هذا الوقت وحده متسربلا برداء الظلام يقول.

يقول[1]:

و ليلٍ كأنَّ الصُبح في أُخرياتِهِ حُشاشَةُ نَصلٍ ضمَّ إفرِندَهُ غِمْدُ

وقد شكى ابن خفاجة أيضا من تطاول الليل، فهو غالبا ما يكون قلق الشاعر المرتحل لأنه قد يظل طريقه أو قد تداهمه الوحوش الليلية فابن خفاجة في قصيدة الليل، رمز للهموم الذي يعاني منها في رحلته وحياته يقول[2]:

وَلَيلٍ إِذا ماقُلتُ قَد بادَ فَانقَضى تَكَشَّفَ عَن وَعدٍ مِنَ الظَنِّ كاذِبِ

إن روعة التصوير وصدق الشكوى من طول الليل والانتظار لانبلاج الصبح، وكلا الشاعرين يرمز بالليل إلى الهموم التي أقضت مضجعه أو رحلته في الحياة، وكلاهما أبدع في تصوير وطأة الليل.

– شهدت المرأة تصورا شديد الوضوح، وربما يعود ذلك إلى أنها صادفت ملابسات غير مألوفة، قبلت الموازين لعل أبرزها انفتاح المجتمع على مظاهر الحياة المختلفة بسبب ازدهار الحضارة العباسية ، فالبحتري يكثر في مقدماته من التذلل بالحبيبة، ويشكوا الهجر والجفاء، يقول[3]:

لِمْ لا تَرِقُّ لِذُلّ عَبْدِكْ وَخُضُوعِهِ، فتَفي بوَعْدِكْ

إنّي لأسْأَلُكَ القَلِي لَ، وأتّقي مِنْ سُوءِ رَدّكْ

وأمَا وَوَصْلِكَ بَعْدَ هَجْ رِكَ، واقتِرَابِكَ بَعدَ بُعْدِكْ

[1] البحتري: الديوان، مج2، ص742

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: ص48.

[3] البحتري: الديوان، مج 3، ص1582.

كما نلاحظ هذا التداخل بين عالم المرأة وعالم الطبيعة في الأندلس فشبهوا جيدها بجيد الظبية وقدها بالغضن، وخدها بالورد في احمراره « إن المثل الأعلى لجمال المرأة الأندلسية المسلمة أن تكون بيضاء، ويتجلى الوجه الوردي في جمال القمر، ومن هنا جاء تشبيههم أيامها بالفجر »[1].

كانت المرأة صورة من محاسن الطبيعة، والطبيعة تجد في المرأة ظلها وجمالها، فقد كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة وجمال الطبيعة فلا تذكر المرأة، إلا وتذكر الطبيعة، فإنها منحت ابن خفاجة جمالا وسحرا من نوع آخر، فألهمته طاقة على تحسس لذة وسعادة أخرى في ذلك الجمال يقول ابن خفاجة[2]:

في فرع إسحلة تميد شبابا فتق شباب بوجنتيها وردة

هنا الشاعر يصف جمال فتاة أخذت بلبه وهي في عز شبابها، فيرينا الورد المتفتق بوجنتيها وهو يتمايل في فرعه أبهة وشبابا.

وأدل ما يفتح به الشاعر هذا الوصف عملية الفتق، وهي عملية تحمل نوعا من الحركية يدفع القارئ إلى التفاعل معها ويتتبع حدوثها، فكأن شاعرنا لا يتحدث عن جمال الوردة بقدر يتحدث عن ظاهرة فتقها، لتصبح هذه الأخيرة قضية في حد ذاتها.

ولم يكتف شاعرنا بتشبيه الخد بالوردة، إنما جعل الوردة تتفتق بهذا الخد بدلا من تفتقها في الطبيعة.

والمتأمل في هذا البيت يلاحظ أن الشاعر يصف المرأة بنوع من العنف فهو لا يرحم الخد حين يجعله يتفتق أمام عينيه.

[1] .اميليو جارثيا جوميث : الشعر الأندلسي (بحث في تطوره وخصائصه)، ترجمة عن الاسبانية، حسين مؤنس، دار الرائد، القاهرة، مصرن ط2، 2005م، ص63.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص53.

وهنا يأخذنا ابن خفاجة إلى قمة البلاغة في التصوير، يقول[1]:

وَلَيلٍ تَعاطَينا المِدامَ وَبَينَنا حَديثٌ كَما هَبَّ النَسيمُ عَلى الوَرِدِ

نُعاوِدُهُ وَالكاسُ يَعبَقُ* نَفحَةً وَأَطيَبُ مِنهُ مانُعيدُ وَما نُبدي

ونقلي أقاح** الثغر أو سوسن الطلى*** ونرجسة الأجفان أو وردة الخدّ

يصف الشاعر مجلس جمع فيه بين الحديث والشراب، وهو في وصفه هذا يرينا ما كان يختار من نقل أثناء تعاطيه خمرة، فهو يفضل أن يكون ذلك من أقاح الثغر أو سوسن الطلى، أو من نرجسة الأجفان أو وردة الخد.

وفي موضع آخر يصف ابن خفاجة حديقة لامرأة، مستعيرا لها العقود والسوالف والزند والسوار، لتبتسم أنوارها بين الظلال يقول[2]:

وَصَقيلَةِ الأَنوارِ تَلوي عِطفَها ريحٌ تَلُفُّ فُروعُها مِعطارُ

عاطى بِها الصَهباءَ أَحوى أَحوَرٌ سَحّابُ أَذيالِ السُرى سَحّارُ

وَالنورُ عِقدٌ وَالغُصونُ سَوالِفٌ وَالجِذعُ زَندٌ وَالخَليجُ سِوارُ

هنا الشاعر يبدي شغفه بجمال الحديقة، وهو في شغفه هذا يكشف عن حب خفي مكنون في أعماقه، لا يظهر صراحة، لكننا نستشفه من خلال الصورة فاستعارته لملامح المرأة في تعبيره عن الجمال تجعلنا نقتنع بأنه يعبر عن إعجابه بالمرأة أولا، ثم بالحديقة ثانيا.

---

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق: ص96.

* يعبق: يفوح طيبا

** أقاح: زهر الأقحوان، أي: رافق شرابه زهر وأقحوان

*** الطلى: الخمر

[2] المصدر نفسه: ص130.

وقوله أيضا[1]:

غازَلتُهُ مِن حَبيبٍ وَجهُهُ فَلَقُ فَما عَدا أَن بَدا في خَدِّهِ شَفَقُ

وَارتَجَّ يَعثُرُ في أَذيالِ خَجلَتِهِ غُصنٌ بِعَطفَيهِ مِن إِستَبرَقٍ وَرَقُ

يصف الشاعر وجه محبوبته، فيجعله صبحا في وضاءته، ولا يلبث أن يتجاوز هذا الصبح إلى الشفق الذي يظهر فجأة على ذلك الوجه.

وأفضل ما قاله[2]:

وَجَنَيتُ رَوضاً في قِناعِكَ أَزهَرا وَقَضيبَ بانٍ في وِشاحِكَ أَثمَرا

استخدم البحتري ألفاظ يستعين بها في بناء صوره: الريح وريح الصبا، وقد ترددت كثيرا في شعره، يقول في قصيدة يصف فيها رياض الجزيرة[3]:

كأنّ العَذَارَى تَمَشّى بِهَا إذا هَزّتِ الرّيحُ أفْنَانَهَا

تعانق من قرب شجراؤها عناق الأحبّة أسكانها

فطورا تقوّم منها الصّبا وطورا تميل أغصانها

وكأن الحسناوات يتبخترن في مشيهن، وقد تشابكت الأغصان في عناق حميم كعناق الأحبة، وقد داعبت رياح الصبا أغصانها.

ويأتي (الصبا) في مقدمة غزلية فيقول[4]:

أكان الصّبا إلاّ خيالا مسلّما أقام كرجع الطّرف ثمّ تصرّما

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: المصدرالسابق: ص209.

[2] المصدر نفسه: ص135.

[3] البحتري: الديوان، مج4، ص2177.

[4] المصدر نفسه:مج4، ص2083.

ويأتي بـ(النسيم) في مواضع مختلفة موظفا إياه للدلالة على الرقة عادة الشعراء القدماء، مثل قوله في وصف الربيع[1]:

ورق نسيم حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبة نعما

يقول أيضا في التشوق إلى "علوة"[2]:

ورق نسيم الروض في ريح شمالٍ وصوب المزن في راح شمول

ولعل تردد ذكر الرياح والصبا والنسيم في شعره، وفي أغراض مختلفة، كان القصد من ورائه الإفصاح والتوضيح كما تختلج به نفس الشاعر وهو أجسه من حب وشوق.

وإلى جانب استخدام مادة الريح، نجد الشاعر يستخدم مادة السحاب والبرق والرعد والمطر.

فمن السحاب قوله[3]:

سرى البرق يلمع في مزنة تمدّ إلى الأرض أشطانها

المشهد يبدأ بصورة البرق الذي يلمع في السحابة الممطرة التي تمد خيوط المطر إلى الأرض كالحبال الممتدة، ومن الطبيعي أن السحب التي تنشأ عنها الأمطار، تكون غالبا مرفوقة بالبرق والرعد.

والسحب غالبا ما ترمز إلى العطاء والجود، فإن الشاعر في مواضع كثيرة من شعره، وظفها في هذا المعنى، كقوله[4] يمدح الملك المظفر بن الأقطس ويشيد بمساعيه وعطاياه التي فاقت عطاء السحب:

وناصتْ مساعيه زهر النجوم وبارت عطاياه وُطْفَ* الدّيَمْ

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق، مج4،ص2091.
[2] المصدر نفسه: مج3، ص 1891.
[3] المصدر نفسه: مج4،ص2145.
[4] المصدر نفسه: مج 4، ص2131.
* الوطفاء: السحب.

وعلى خلاف البحتري نجد ابن خفاجة وقد اعتاد على رؤية السحاب، وما تحمل معها من خيرات، وقد استمتع بتأملها والتفكر في عجيب خلقها ويأتي بالنسيم الذي يرمز إلى الرقة في قوله[1]:

ندى النسيم وما أرقّ وأعطرا وهف القضيبُ، فما أغضّ وأنظرا

فزففتها بكراً إذا قبّلتها ألقت، على وجهي، قناعا أحمرا

ورفلت بين قميص غيم هلهل ورداء شمس، قد تمزق، أصفرا

والرّيح تنخل، من رذاذ لؤلؤا رطبا وتفتق من غمام عنبرا

فالشاعر يعيش بين روضة ندية، ونسيم زكي، قد لاعب الريح أغصانه وأشجاره، ليصل إلى السحاب ويستدر درها، ويستخرجه من أصدافه وينثره على جيد الأرض، ليقف الشعراء مذهولين أمام جمال السماء وبديع صنعها.

وفي موضع آخر يذكر النسيم، يصف لنا ابن خفاجة صور جمال الطبيعة ويستهلها بالخمر فيقول[2]:

أحس المدامة والنسيم عليل والظّل خفّاق الرّواق ظليلُ

يعد الخيال من أهم مصادر تشكيل الصورة الشعرية، لاسيما أنه يقوم بتأليف صورة جديدة غير مألوفة من قبل، « والجمال أبرز صفاته، وأظهر مميزاته، ومنشأ جماله ما فيه من خيال رائع، وتصوير دقيق، وتلمس لوجوه الشّبه البعيدة بين الأشياء، وإلباس المعنوي ثوب المحسوس، وإظهار المحسوس في صورة المعنوي »[3].

فعندما ندقق النظر في الصورة والأخيلة التي أتى بها الشاعر نجد أن خيال البحتري مصنوع يقوم على الأشكال الحسية أو نقول الأشكال البلاغية فهي تختلف عادة في درجة النضج، فبعضها بسيط واضح وبعضها الآخر معقد خفي.

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: ص117.

[2] المصدر نفسه، ص244.

[3] جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت، ص375.

ومن فنون الأشكال عند البحتري نجد التشبيه، فهو يعد أحد عناصر التشكيل الفني التي اعتمدها الشاعر، فهو كما عرفه ابن رشيق: « وصف الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه »[1].

ومما لا شك فيه أن أثر الحياة البحتري في بيئة تتلون بالخضرة وتتسم أريج الزهور زاهية الألوان، سواء في منبج أو في قصور الخلفاء ورياضها ومباهيها غير قليل في انعكاس ذلك في شعره، وهو يستجيب في تشبيهاته للظروف الحضارية التي تدفعه إلى التجديد لمواكبة ما يراه في القصر، فيصور ذلك مستغلا قدراته الخاصة في الابتكار يقول في وصف **قصر المتوكل**[2]:

في رأس مشرفة حصاص لؤلؤ وترابها مسك يشاب بعنبر

مخضرّة، والغيث ليس بساكب ومضيئة والليل ليس بمقمر

فهذا قصر الخليفة المتوكل يصفه من خلال البيتين: دار الخليفة المشرفة كأن حصاها لؤلؤ وذلك على سبيل التشبيه البليغ، أما ترابها فشبهه بمسك شابه عنبر وهي مخضرة ومضيئة ليلا، وقد امتازت بضخامة البناء واخضرار الشكل.

وقد شبه قصر الزّوّ بالجبل في ارتفاعه يقول[3]:

تحدّر بالدّراج من كلّ شاهق مخضّبة أظفارهن دوام

فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالسماحة طام

[1] ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسب الشعر وآدابه ونقده، ص280.

[2] البحتري: الديوان، مج2، ص1040.

[3] المصدر نفسه: مج4، ص2002.

فقد شبه سريان جدول القاطول وماؤه يتدفق ماء البحر لغزارته، وكذلك انتقل إلى تصوير ارتفاع القصر وشموخه بالجبل، وكلها تشبيهات حسية أجاد الشاعر في رسمها ثمة التزاوج بين التراث والحضارة.

وفي موضع آخر يقول[1]:

هو البحر الذي حدّثتُ عنه، هو الغيث المغيث من السّماء

هنا الشاعر يشبه الممدوح في كرمه وجوده بالبحر والغيث، فالمعنى مشترك بين المشبه والمشبه به فكلاهما فيه حياة الشاعر والناس.

وقله أيضا[2]:

هو العارض الثّجاّج أخضلَ جودهُ وطارت حواشي برقهِ فتلهّبا

يشبه الشاعر ممدوحه بالسحاب العارض، وحذف الأداة ووجه الشبه ليترك المتلقي يعمل تفكيره وعقله في استنباط الشبه وعمد إلى وصف المشبه تبه (العارض) ليشعر بوجه الشبه فهو غزير الماء شديدة الانصباب يصيب جوده ويصفه أيضا أنه يحرق من يصيبه.

ونلحظ في شعر البحتري نوع من التشبيه المقلوب في وصفه لشقائق النعمان، قول[3]:

شقائق يحملن النّدى فكأنّه دموع التّصابي في خدود الخرائد

فالأصل أن تشبه الدموع إذا قطرت على خدود الحسان، بقطرات الندى على زهر شقائق النعمان، ولكن البحتري قلب التشبيه هنا تفننا في التعبير والتماسا للمبالغة بادعاء وجه الشبه أقوى في المشبه به، فجعل قطرات الندى على الشقائق تشبه دموع الشوق على خدود الحسان.

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق،مج1، ص48

[2] المصدر نفسه : مج1،ص198.

[3] المصدر نفسه: مج1،ص624.

ومن وسائل الصورة الشعرية، التي تعد شكلا صوريا تقوم على المشابهة وقد عرفها الشكاكي بقوله: « هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به »[1].

وقد جاءت الاستعارة عند البحتري كنتيجة طبيعة للتطور الحاصل في التشبيه وعلى الرغم من شيوعها فإنها أقل شأنا في بناء الصورة من التشبيه.

ومن بين الاستعارات التي وظفها البحتري في شعره، يقول[2]، يقول في وصف بركة المتوكل:

مبال دجلة كالغيرة تنافسها في الحسن طورا وأطوارا تباهيها

فقد شبه الشاعر الدجلة بالمرأة التي تغار على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول أيضا[3]:

خَرُس الثرى وتكلّم الزّهر وبكى السّحاب وقهقهة القطر

حذف الشاعر المشبه به "الإنسان" وأبقى شيئا من لوازمه وهو "الخرس" الكلام، البكاء، القهقهة" وأبقى المشبه به "الثرى، الزهر، السحاب بالقطر" على سبيل الاستعارة المكنية، وهذه استعارة رائعة والسر في ذلك يرجع إلى أن الشاعر عمد إلى إحياء المواد الحسية الجامدة، وإكسابها إنسانية الإنسان وأفعاله على سبيل التشخيص فجعل الجماد ينطق وخلع عليه ثوبا فضفاضا من الجمال.

اكتسب الثرى والزهر والسحاب والقطر طبيعة الإنسان فغدت تتصرف تصرف الإنسان وبداخلها شعور مماثل لشعره، وهذا التشكيل الاستعاري أظهر اتصال الشاعر الوثيق ببيئته العباسية، فتأملها كما لو كانت هي ذاته.

[1] أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق، أكرم عثمان، دار الرسالة، بغداد، ط1، 1982م، ص184.

[2] البحتري: الديوان، مج4، ص2418.

[3] المصدر نفسه: مج2، ص1005.

وقوله أيضا يصف ذئبا[1]:

فما ازداد إلاّ جرأة وصرامة وأيقنتُ أن الجدّ منه هو الجدُّ

في هذا البيت أعطى الشاعر للذئب بعض صفات الإنسان (الجرأة، الصرامة) المتجلي هنا هو الذئب، والغائب هو الإنسان، وقد دلت عليه بعض القرائن اللفظية كالجرأة، الصرامة، والصورة تكشف شدة شراسة هذا الذئب وهي تمثل استعارة مكنية.

وقوله في موضع آخر[2]:

فحاجب الشّمس أحيانا يضاحكها وريق الغيث أحيانا يباكيها

وردت في صدر البيت في قوله (فحاجب الشمس)، فحواجب الشمس هي الأشعة، فقد تمثل في التشخيص، فالشمس تضاحك ماء البركة والمطر يباكيها على سبيل الاستعارة التصريحية.

وتعد الكناية أيضا من أساليب البيان في البلاغة التصويرية فيه صورة مباشرة تشير إلى معنى غير معناها الأصيل وهي تتشابه مع الوصف في الشكل أو الطريقة المباشرة لرسم الصورة.

وقد وردت في شعر البحتري، يقول[3]:

هل العيش إلاّ ماء كُرْمٍ مصفّقٌ يُرَقْرِقُهُ في الكأس ماء غمام

في هذا البيت وردت الكناية في لفظة (الكرم، أي العنب) وهو يكني عن أهمية الخمر ومكانتها التي تحول في إناء إلى آخر لتصفوا.

[1] البحتري: الديوان، مج2، ص744.
[2] المصدر نفسه: مج3، ص1591.
[3] المصدر نفسه: ص1983.

وقوله أيضا[1]:

تسربلته والذّئب وسنانٌ هاجعٌ بعين ابن ليل ماله بالكرى عهدُ

وردت الكناية في (بعين ابن ليل) وهي كناية عن اللص، والليل يرمز إليه من وحشية وخوف، اتخذ منه البحتري وسيلة للاعتزاز بالنفس والفخر بالذات.

كان للاستعارة حضور مكثف وقد فاقت في ذلك التشبيه ويعزى ذلك إلى قوة إيحائها وقوة التصوير، وقد اعتمد الشاعر في بناء صوره على الطبيعة بمختلف مظاهرها، وقد ساعد التشخيص والتجسيم في نقل المحسوسات من العالم الحقيقي إلى العالم المادي الملموس.

ولو تأملنا ديوان ابن خفاجة لوجدنا الشاعر أيضا يفرط في الاعتماد على الصور البيانية المختلفة في شاعره، خاصة الموضوعات التي عالجها على وجه الخصوص وصف الطبيعة، وصف الروضيات، الثلوج والجبل وغيرها من الموضوعات، وأول نمط تصويري بلاغي يظهر في شعر ابن خفاجة في وصفه للطبيعة بكل تجلياتها هو التشبيه الذي حظى بعناية كبيرة، فقد كان وسيلة من وسائل تقريب المعنى وإيضاحه وهو عنصر أساسي في الشعر.

ومن الشواهد التي تضمنت التشبيهات وصفه لأراكة يقول[2]:

وآراكة ضربتْ سماءً فوقنا تندى وأفلاك كؤوس تدار

حفّت بدوحتها مجرّةُ جدولٍ نثرت عليه نحومها الأنهار

[1] البحتري: الديوان، مج2، ص742.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص136.

وكأنّها وكان جدولَ مائها حسناء شدّ بخصرها زنّار

يصف ابن خفاجة شجرة "الأراك" وقد خيم ظلها، والأزهار منثورة عليه فقد شبه هذه الشجرة والماء المحيط بها، وكأنها حسناء يلف خصرها زنار فهو تشبيه مرسل ذكر فيه جميع أطرافه.

وهذه التشبيهات صنعت حركية بألوانها الزاهية وظلالها، فالطبيعة دائما ضاحكة مسرورة.

وقوله أيضا في وصفه للنهر[1]:

متعطف مثل السّوار كأنّه والزّهر يكنُفُه مجرُّ سماءِ

فالشاعر شبهه هو الذي يجري متثنيا وينساب متعرجا كالسوار بالزهر مجموعة من النجوم في السماء.

وفي موضع آخر في مزجه الطبيعة (الزهر) بالغزل يقول[2]:

وغَازَلَنَا جفنٌ هناك فنرجسٍ مبتسمٌ للأقحوان شنيبُ

في هذا البيت يتغزل بمحبوبته فيشبه جفونها التي تشبه زهرة النرجس تعلوها صفرة وبياض أسنانها المضيئة التي تشبه زهرة الأقحوان في بياضها ونورها، وهذا تشبيه مرسل.

كذلك نجده يستعين بالتشبيه التمثيلي يخلق لنا صورة رائعة يقول[3]:

والرّوض وجه أزهرٍ وظلُ فر غٌ أسودٌ والماء ثغر أشنَبُ
في حيث أطربنا الحمام عشيّة فشدا يغنّينا الحمام المطربُ

[1] إبراهيم بن آبي الفتح ابن خفاجة: المصدر السابق، ص13.
[2] المصدر نفسه: ص31.
[3] المصدر نفسه: ص41.

في هذين البيتين يصف لنا ابن خفاجة روضة من الرياض وهي مزهرة ويحيط بها الظل الظليل والماء كأنه حلو ريقه عذب شرابه فقد شبه الروض وكأنه وجه حسنا، والماء كأنه فم فهنا تشبيه تمثيلي والحمام يطرب ويشدو تلك الروضة.

وتأتي بعد التشبيه في موضع الوصف عند الأندلسيين الاستعارة والتي رأينا أهميتها في تشخيص نظاهر الطبيعة « فبدت أكثر حيوية بما أضفته عليها من عواطف وإحساسات ارتقت من مستوى الجمادات إلى مستوى الإنساني، فسوى منها الشعراء كائنا يحس وينطق ويعي بفضل ما يحدث مع هذه الأداة من تفاعل وتداخل في الدلالة، وهو مالا يتحقق مع التشبيه الذي تقوم العلاقة على محض المماثلة والمشابهة »[1].

ومن الشواهد التي استعان بها الشاعر في توظيف استعارته نذكر منها وصفه مجلس أنس يقول[2]:

والنور مبتسم وخ  دُّ الوردي محطوط النقابْ

فقد ذكر المستعار له (النور) وحذف المستعار منه (المرأة) ورمز له بشيء من لوازمه (الابتسامة) على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول أيضا في وصف شقائق النعمان [الكامل][3]:

يا حبذا والبرق يزحف بكرةً  جيش رحيق دونه وحريقِ

[1] عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأمر، للنشر والتوزيع، المدنية الجديدة، تيزي وزو، د ط، 1995م، ص165.

[2] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص30.

[3] المصدر نفسه: ص213.

* رحيق: صفوة الخمر.

** تنية: الرابية.

*** مرقبة: المكان المرتفع للمراقبة.

حتى إذا ولّى وأسلم عنوةً ما شئتَ من سهلٍ وذروة نيقِ

أخذ الرّبيع عليه كلّ ثنيةٍ** فبكلّ مرقبة لواءُ شقيقِ

يصف ابن خفاجة زهرة الشقائق وهي كالجيوش تراقب وقد ذكر المستعارة (شقيقة) وحذف المستعار منه (الإنسان) ورمز له بشيء من لوازمه (المراقبة) على سبيل الاستعارة المكنية.

كما شكلت الكناية في شعر الوصف عند ابن خفاجة صورة خيالية ومن الشواهد يقول في وصف محبوبته[1]: [الكامل]

فنلت مراد النّفس في أقحوانةٍ شممت عليها لعرارِ

ووجه تخالفي صحن خدّه قتاتة مسك فوق جذوة نارِ

يصف ابن خفاجة محبوبته برقة وجهها وطيبته اللذان يفوقان رائحة المسك في بياضه، فالشاعر قد نال مراده من الاقحوانة والعرار وهي كناية عن صفة جمال المحبوبة.

ومن الوجوه البديعية التي وظفها البحتري الجناس والطباق، ومن الجناس الذي نقف عليه في شعره قله[2]:

سَرَتْ يداه بكلّ سارية من النّدى ثرّةً الشآبيب

ونجد أن الشاعر يجانس بين الفعل (سرت) بمعنى السير ليلا وبين الاسم (سارية) بمعنى السحابة التي تنشأ ليلا، والأصل الاشتقاقي لهما (سرى) التي توحي بمعنى التخفي والسرية، وهذا التماثل في الحروف يخلق موسيقى تشيع داخل البيت وتضفي عليه طابع الهدوء والسكينة من خلال تكرار الصوت (السين) و(الثاء).

[1] إبراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، المصدر السابق، ص115.

[2] البحتري: الديوان، مج1، ص153.

وقوله أيضا[1]:

فإذا ما السّحاب كان ركانا فسقى الربّاب دار الرّبابِ

جانس الشاعر بين (الرباب والرباب) فتجانسهما الصوتي يكاد تاما الرباب الأولى دلت على السحاب الأبيض، والرباب الثانية دلت على اسم المرأة ومن أنواع الجناس الناقص كقوله[2]:

ليثٌ وغيثٌ وجواد ماجد كفاه بالأموال تحبو وتهب

جانس البحتري بين (ليث وغيث)

من الألوان البديعية نجد الطباق وهو الجمع بين الشيء وضده، ومن خلال استقراء شعر البحتري نلاحظ استخدامه لمثل هذا النوع من البديع كما في قوله[3]:

كالغيث مُنْسَكًا على إخوانه كالنّار ملتهبًا على أعداءِهِ

وقد طابق بين (غيث) و(نار)، فعاطفه الشاعر وخياله جمعت لممدوحه عناصر متضادة في داخل البيت تؤدي وظيفة الإعجاب بممدوحه وقوله في وصف قصر الزّوّ[4]:

ولو شاهد الدنيا وجامع ملكها لقلّ لديه ما يكثر من مصْرِ

أتى بالطباق الإيجابي بين الفعلين (قل، يكثر).

وقوله أيضا[5]:

إذا رأى قصراً على ظهر لجّة يروح ويغدو فوق أموجها يجري

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق، مج1، ص162.
[2] المصدر نفسه: مج1 ، ص126.
[3] المصدر نفسه: مج1 ، ص34.
[4] المصدر نفسه: مج2 ، ص647.
[5] المصدر نفسه: مج 2، ص702.

ورد الطباق بين الفعلين (يروح ويغدو) وهو طباق إيجاب

ويعود البحتري ليصور ما يدور في القصر الجميل (الزو) فيقول[1]:

غنّينا على ظفر يسير بفتية قعودُ على أرجائه وقيامُ

فقد ورد الطباق الإيجابي لتصوير مظاهر الفرح بين لفظتين (قعودوقيام) والبحتري مفتون باستخدام الطباق، من أجمل جمالية الأضداد في الوصف.

ونجد ابن خفاجة أيضا وظف في شعره الجناس والطباق، ومن الجناس الذي نقف عليه في شعره قوله[2]:

[الكامل]:

في روضة جنحُ الدّجَى ظلٌّ بها وتجسّمت نورًا من الأنوارُ

فالجناس في قوله (نور) في عجز البيت، (وأنوار) حيث كرر الشاعر لفظ النور والأنوار، الأولى تعني: الضوء والإثارة والأنوار: تعني الأزهار وقوله[3]:

في حين أطربنا لحمام عشيّة فشاب يغنّينا الحمام المطربُ

الجناس واقع بين (الحمام) فه جناس تام.

وفي موضع آخر يصف شقائق النعمان يقول[4]:

يا حبّذا والبرد يزحف بكرةً جيشا رحيقٌ دونه و حريقُ

الجناس واقع بين (رحيق وحريق)

كما نجد الطباق عند ابن خفاجة في قوله[5]:

في روضة جنح الدّجى ظلامها وتجسمت نوار بها الأنوار

[1] البحتري: الديوان، المصدر السابق: مج3، ص1980.
[2] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، ص114.
[3] المصدر نفسه: ص136.
[4] المصدر نفسه: ص115.
[5] المصدر نفسه: ص 351.

الطباق الحاصل بين النور والدجى فهو طباق إيجاب

وقوله أيضا[1]:

نام الغبار بها وقد نضج النّدى وحمة الثّرى واستيقاظ النوّار

الطباق بين استيقظ ونام

– وهناك ظاهرة أخرى اهتم بها الشعراء في قصائدهم، وهي ظاهرة بناء أواخر الأبيات أو ما يسمى بالتصريح بحيث تكون قافية الشطر الأول من نفس قافية الشطر الثاني.

والبحتري من الشعراء الذي أحسوا بطعم هذا الإيقاع، ومن أمثلته:[2]

زعمَ الغرابُ منبّئُ الأبناءِ أنّ الأحبّة أذنوا بتناءِ

إن التصريح في هذا البيت قائم بين ( الأنباء و بتناء)

وقوله أيضا[3]:

ومستضحكٍ من عبْرتى وبُكائي بكفيه دائي في الهوى ودوائي

فكلمة ( وبكائي) التي تمثل العروضة تابعة لكلمة ( ودوائي) التي تمثل الضرب أي أنها جرت مجراها لمكان التصريح

كما نجد التصريح في شعر ابن خفاجة: في قوله[4]:

لله نهر سال في بطحاء أشهب ورودا من لمى الحسناء

التصريح واقع بين صدر البيت وع جزه ( بطحاء وحسناء).

[1] إبراهيم أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، المصدر السابق، ص 351.

[2] البحتري: الديوان، ص1.

[3] المصدر نفسه: ص43.

[4] إبراهيم بن أبي الفتح إبن خفاجة: الديوان، ص11.

لقد أبدع كل من البحتري وابن خفاجة في وصف..... وكل تفنن حسب ما جاء به محيطه من صور ومناظر، وما اختلج في نفرسها من نوازع الحياة وهذا راجع إلى البيئة التي عاشها فينا اعتبار الأدب ابن بيئته وعصره يتطور بتطوره ويضعف بضعفه.

# خاتمـــة

في ختام هذه المسيرة البحثية التي سلطنا فيها الضوء على شعر الطبيعة بين شاعرين ينتميان إلى عصرين مختلفين، هما "**البحتري**" الذي كان رائد شعر الطبيعة في العصر العباسي، و"**ابن خفاجة**" الذي كان ينعت **بجنّان الأندلس**، توصلنا إلى جملة من النتائج تمحورت في مجموعة من النقاط تتمثل في:

- الوصف في معناه العام ولدى جميع النقاد هو نعت الشيء بما فيه ووصف أحواله وتصويرها، كوصف الجماد والنبات والأشجار والأنهار والحيوانات، والجبال... إلخ.

- لقد احتل وصف الطبيعة في الشعر العربي القديم مساحات واسعة جعلت منه موضوعا رئيسيا في هذا اللون الإبداعي، ولم تخرج مضامينها عن الوصف الحنين، الغزل، الالتزام، المدح....الخ، وهذا ما برز من خلال الشاعر الجاهلي فقد طرقه وأبدع فيه، ونقل مظاهر البيئة الجاهلية المحيطة به، فوصف كل ما وقع عليه عينه من جماد وحيوان ونبات نقلا واقعيا صادقا في زمن كان "الشعر ديوان العرب"، وبروز المقدمات الطللية في ذلك العصر.

- أما في العصر الأموي والإسلامي فيتراءى لنا أن الشاعر لم يخرج في وصفه عن الموضوعات التقليدية التي طرقها الجاهلي، ليبقى شعر الفرزدق والأخطل وجرير خير من صاغ وصف الطبيعة في ذاك العصر.

- أما في العصر العباسي الذي يعتبر أزهى العصور مشعّا بالحضارة والتطور الاجتماعي فكان من عبر شعريا عن وصف الطبيعة ابن المعتز والبحتري، وأبو تمام تعرضوا إلى وصف الطبيعة وقدّموها في أبهى حلّة.

- الوصف في العصر الأندلسي لم يختلف كثيرا عن سابقيه، فقد أضفى عليه الشاعر الأندلسي مسحة إنسانية مزج الشاعر كثيرا بين وصف الطبيعة وبين الوجدانيات كالحنين للوطن (شقر، بلنسية) والغزل، وأبرز من رسموا لوحات إبداعية من عمق الأندلس "ابن خفاجة" "ابن زيدون" "ابن الدرّاج" "ابن عبد ربه".

– كشف وصف الطبيعة عن تميّز طفح به أسلوب الشاعرين حيث غالبا الاحائية على عالم "البحتري وابن خفاجة"، الذي عزفت إيقاعاتهم على أنغام وصف الطبيعة لكل هو اجسهم وآلامهم، فوظّفوا الرموز الطبيعية: الريح، البرق، الرعد، في حين جاءت أعمال ابن "خفاجة" الشعرية في طابع تجديدي متميز حيث استغن الشاعر عن ذكر الأطلال الذي لازم القصيدة العربية طويلا وعوض عن ذلك بذكر الطبيعة في أكثر من مجاليها.

– ألقى وصف الطبيعة بظلالها على عوالم وفضاءات الإبداع الشعري عند كل من "البحتري وابن خفاجة" استند عليها لإضفاء تلك المسحة الجميلة في الطبيعة، فكان وصف الطبيعة بارزا في معالمهم الشعرية، فلم يخرجا من التقليد، نجد في الشعر الأندلسي أوصاف تقليدية شائعة في الأشعار المشرقية.

– سيطرة وصف الطبيعة على الحالة النفسية للشاعرين جسدتها عناوين قصائدهما جمعت فيها أشعار الأندلسيين في وصف الرياض والأزهار والبساتين، أو عولج فيها موضوع وصف الطبيعة جملة، أو جوانب منها:

من الكتب الباقية من هذه المؤلفات كتاب (البديع في وصف الربيع) لأبي الوليد الحموي، وكتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لابن الكتاني الطيب.

وكتاب (البديع في وصف الربيع) وضع ليجمع فيه المؤلف قدرا من شعر معاصريه وبعض النثر أيضا، مما يتعلق بوصف الزهور والرياحين، وتفضيل بعضها عن بعض، وقصره المؤلف على ما وجده لمعاصريه من الأندلسيين في القرن الخامس الهجري.

– عانقت الطبيعة عوالم "البحتري" و"ابن خفاجة" الشعرية مشكلة إيقاعا حزينا أحيانا وموسيقى متميزة سمحت للقارئ بأن يلج عالمهما، ويشاركهما همومهما، مجسدة بذلك الهم الذاتي والهم الجماعي.

– جاء أغلب شعر البحتري في الوصف إذا رصد جل مظاهرها الصامتة منها والمتحركة، وقد شغل الفرس والذئب من طبيعته الحية فوصفهما وأكثر من نعتهما، ولكنّ الأمر لم يتوقّف عندها فحسب، بل امتدّ إلى موضوعات أخرى كانت تحتويها البيئة العباسية، إذ وصف العمران من قصور ورياض وبساتين، وقد اتسمت موصوفاته بالحسية، لأنه استمد جل صوره من الطبيعة، فجاءت معبرة عن واقع تلك البيئة.

– عاش "ابن خفاجة"عيشة حيث الرخاء المادي بفضل ما ورثه من ممتلكات وأراضي فأعانه ذلك على التحصيل العلمي والثقافي، فكان تكوينه في البداية تكوينا دينيا لكنه سرعان ما مال إلى الأدب على حساب ذلك، لعشقه الشديد للشعر، فكان شديد الحفظ لقصائد الشعراء القدامى، وقد قضى شبابه لاهيا ماجنا إلى أن بلغ فاتجه إلى الطبيعة يحاول الكشف عن أسرارها وخباياها، فزهد في الدنيا وصار يخاف من الموت لفقدان أصدقائه فغاص في ما يرى ويسمع ويلمح في البساتين والرياض، والأنهار والجداول، والينابيع، وفي الجبال والسهول الفيحاء، وأعجبته ما تنبت الأرض من شجر ونبات وخصوصا تلك الأزاهير والزنابق وألوان الورد البديع الحسن الرائق المنظر؛ ورصدوا الجمال في كل شيء حولهم مما أخرجته الطبيعة دون أن تمتد إليه يد الإنسان.

يعدّ "ابن خفاجة" أشهر شعراء الأندلس في موضوع وصف الطّبيعة ولعل شعره يفيض بالمزايا التي تجعله في مقدمة شعراء العرب القدامى في هذا الغرض، فقد أكثر من وصف الطبيعة الأندلسية، ووصل بين الطبيعة وبين معظم أغراض الشعر الأخرى، وجعل مفردات الطبيعة على اختلاف أنواعها معجما لغويا وفنيا يرجع إليه في صناعته الشعرية، وربط بين الطبيعة وبين رؤيته الخاصة للحياة بما فيها من عظات وعبر.

– لقد كان الالتزام المحرك الذي استطاع من خلاله الشّاعران مواساة ألامهما والتّخفيف من وطأة وقسوة الحياة الذي تمكن ذاتهما، فكانت بذلك الطبيعة الدّافع الأساسي "للبحتري" "وابن خفّاجة" على حمل روح الالتزام في إبداعاتها الشعرية.

– لقد أصبحت الكتابة وسيلة وملاذ لهروب الشاعرين من ذلك الواقع الأليم الذي عاشه وهذا ما أكده التزايد الكبير الذي عرفته كتابتهما عندما خاضا في الطبيعة، تحوّلت بذلك تلك الآهات والآلام إلى لمسات إبداعية مستوفية على قيم جمالية، اتّسم بها شعر الشاعرين.

ومن خلال عرضنا لأهم المظاهر الحضارية عند كل من البحتري وابن خفاجة توصلنا إلى مجموعة من نقاط الاختلاف بينهما، أهمها:

– وصف "ابن خفاجة" المظاهر الحضارية التي لم يتطرق إليها شعر البحتري.

– ذكر "البحتري" الطلل في وصفه للطبيعة، في حين نلحظ غياب ذلك في وصف "ابن خفاجة".

فالشاعران لم يختلفا ربما قرب الفترة الزمنية بينهما حيث التمدن والرخاء، إلا أن هذا لم يمنع من وجود نقاط تشابه بينهما من أبرزها نجد:

– استعمالهما نفس البحور الخليلية القديمة القائمة على وحدة الوزن والقافية.

– كلاهما وصف الليل، وجله مصدر للهموم كما رأينا في وصف الجبل، والذئب والفرس.

– تأثير الطبيعة واضح في شعر كل منهما، فهي اتصال بين تلك الموصوفات وبين نفس الشاعر، وعاطفته، ونماذج بين كثير منها، وبين رؤيته في الكون وموقفه من الحياة، وكثيرا ما ينقل إلى القارئ أحاسيسه بجزيئاتها ووقائعها.

وفي الختام نأمل أننا وفقنا بالإلمام بجوانب هذا الموضوع الذي يظل رهين إشكالات تتطلب مزيدا من بذل الجهد وإضاءته من زوايا وجوانب أخرى.

# قائمة المصادر

# والمراجع

## المصادر والمراجع

القرأن الكريم (ورش عن نافع)

### أولا: المصادر

1- ابراهيم بن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان، شرح وضبط عمر فاروق الطباع، دار القام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط،1994م.

2- أبو عبادة البحتري: الديوان، تحقيق وشرح وتعليق، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، 1964م.

3- الحماسة: البحتري، تحقيق، محمد إبراهيم حور، المجمع الثقافي أبو ظبي، د ط،2007م.

### II- المعاجم

4- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، مج 15.

5- كامل الجبوري: معجم الشعراء في معجم البلدان: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، د ط، 2002.

6- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز الأبادي: القاموس المحيط، قدم له وعلى حواشيه أبو لوفا نصر الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

7- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1999م، ج2.

### ثانيا: المراجع

8- ابن الرومي: الديوان، سرح مجيد الطراد، دار الجيل بيروت، ط1، 1998م.

9- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1978م، مج6.

10- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محي الدين، دار الجي، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص404،.

11- أبو هلال العسكري: الصناعتين، الكتابة والنشر، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1984م.

12- أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق، أكرم عثمان، دار الرسالة، بغداد، ط1، 1982م.

13- أبي الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د ط، 1986م.

14- أبي قاسم الحسن بن بشر الأمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحق، أحمد شقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، دت،ج1.

15- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1997م، ص65.

16- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2011م، ج2 .

17- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار النهضة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د ط، د ت.

18- أحمد سوسة: ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1948م، ج1.

19- امرئ القيس: الديوان، دار صادر، بيروت، ط3، 2007.

20- أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملاين، بيروت، لبنان، ط 17، 1989م، ص 256.

21- بان رشيف القيرواني: العمدة في محاسن السفر وآدابه ونقده، تحقيق محمد معي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، 1972م، ج1.

22- بسام الشنتريني: الدخيرة في محاسن أصل الجزيرة، ، تحقيق إحسان، عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط2، 1997م، مج1.

23- بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العباسية، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، د ط، 2011م.

24- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت.

25- حسن صالح: اليظي: البحتري بين نفاد عصره، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1982م.

26- الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب مج، تفصيل وشرح، زكي مبارك، دار الجميل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 4، د ت، مج1.

27- حنا فاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب القديم-، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

28- زكي العشماوي: خمريات أبي نواس- دراسة تحليلية في الشكل والمضمون-، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، 2000م.

29- شوقي شيف: الفتى ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11، 1943م.

30- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط7، 1963م.

31- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1986م.

32- عامل الجبوري: معجم الشعراء في معجم البلدان، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، د ط، 2002م.

33- عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشهر العربي، (الوصف في العصر الجاهلي)، دار النشر، مطبعة مصطفى بابي، القاهرة، مصر، ط1، 1949م، ج1.

34- عبد الفتاح نافع: الشعر العباسي قضايا وظواهر، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008م.

35- عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأمر، للنشر والتوزيع، المدنية الجديدة، تيزي وزو، د ط، 1995م.

36- عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي، دار الأمل للنشر والتوزيع، المدينة الجديدة، تيزي وزو، د ط، 1995م.

37- عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، علم المعرفة، الكويت، د ط، 1998م.

38- عبد المتعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د ط، 1965م.

39- فوزي عيسى: في الشعر العباسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 2008م.

40- قدامة بن جعفر: نقد العشر، تحقيق نجوى محمود حسين، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر، د ط، 2002م.

41- زين الدين كامل الخويسكي: في الأدب العباسي والأندلسي- دراسات ونصوص-، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر، دط، 2006م.

42- محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، ، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، د ط، 1968م، مج1 .

43- محمد بن يحي الصولي: أخبار البحتري، تحقيق وتعليق صالح الأشقر، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، د ط، 1958م.

44- محمد خضر: أدب صدر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، 2008م.

محمد خفاجي: الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004م.

45- مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1986م.

46- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار هنداوي، القاهرة، مصر، د ط، 2012م.

**ثالثا: الموسوعات**

47- عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، 2000م.

48- عبد عون الروضات: موسوعة شعراء العصر العباسي الأول، ، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط3، 2008م، ج1.

49- محمد موسى الوحش: موسوعة أعلام الشعر العربي، دار دجلة، ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، د ط، 2008م.

**رابعا: المجالات**

50- ثائر سمير حسن الشمري: لمحات من وصف الربيع في العصر العباسي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد 8، تموز 2012م.

51- زينب عبد الكريم حمزة: وصف الطبيعة في الشعر العباسي، لوحات كشاجم- نموذجا- ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 35، تشرين أول، 2017م.

**خامسا: الرسائل الجامعية**

52- سمية محمدي: وميزات طيف الخيال في شعر البحتري، رسالة ماجستير في اللغة العربية، إشراف فرهاد ديوسالار، جامعة الآزاد الإسلامية في كرج، 2011م.

53- هجرس عبد الكريم: الطبيعة في شعر البحتري- دراسة أسلوبية- مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستر في الخطابات المستخدمة في العصر العباسي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1430 هـ -1431 هـ /2009م-2010م

**سادسا: الكتب المترجمة**

54- اميليو جارثيا جوميث : الشعر الأندلسي (بحث في تطوره وخصائصه)، ترجمة عن الاسبانية، حسين مؤنس، دار الرائد، القاهرة، مصرن ط2، 2005م.

**سابعا: المواقع الإلكترونية**

-(http://www.kalimat.org).

-(htt/://www.hindawi.org).

-(http://www.al-Mostafa.com).

# الملحق

## أولا: السيرة الذاتية للبحتري وابن خفاجة

### 1- السيرة الذاتية للبحتري:

**نسبه ومولد:**

« هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحي بن شملال بن جابر بن سلمة بن مسهر بن الحارث بن خيثم ب أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة، وهو طيّء، بن أدد ابن زيد بن عهلان بن سبأ بن يشجب، بن يعرب بن قحطان، الطائي البحتري الشاعر المشهور »[1].

وكنيته أبو عبادة ويقال أبو الحسن، ومن هذا يظهر أن له كنيتين ولكن بعض الروايات ذهبت إلى أنه كان يكنى أبا عبادة قبل دخوله العراق ولما دخلها أكتنى بأبي الحسن تقربا إلى النابهين والكتاب من أصل الشيعة، وأنصاره يرون أنه أكتنى بأبي الحسن تشبها بمذهب الحضارة، ولكنه حين اتصال بالمتوكل وهو يكره الشيعة أشير أن يكتفي بكنيته الأولى وهي أبو عبادة ففعل ويقال أنه اقتصر على أبي عبادة لشهرتها، يقول الخطيب في كتابه تاريخ بغداد « إنه كان يكنى أبا الحسن وأبا عبادة فأشير عليه في أيام المتوكل أن يقتصر على أبي عبادة فأنها أشهر ففعل»[2]، وأما الإسم الذي اشتهر به في عالم الأدب فهو البحتري نسبة إلى (بحتر) جده المشهور.

ولد « بمنبج بين حلب والفرات في خلافة المأمون عام 206هـ- 821 م»[3] وعلى رأي بعض الرواة أنه ولد «بالزردفانة وهي قرية من قراها تجاور منبج »[4]، غير أن البحتري نفسه يكرر كثيرا في شعره منبج مسقط رأسه.

---

[1] ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1978م، مج6، ص21.

[2] أبي الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص26.

[3] عامل الجبوري: معجم الشعراء في معجم البلدان، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، د ط، 2002م، ص ص 91- 92.

[4] ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ص21.

نشأ البحتري في أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها، فتأصلت فيه ملكة الأعراب وجرت على لسانه أساليبهم، التحق بالعلماء في المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئا من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام واستيقظت في مواهب الشعر المبكرة.

**صفاته وأخلاقه:**

لعل دراسته المبكرة في الكتاب أسهم في تشربه بالأخلاق الإسلامية الكريمة، ولا يوجد أحد ممن ترجموا للشاعر أن ذكر أنه كان زنديقا مع كثرة أعدائه المعاصرين له، فإننا لم نستطع أن نصف البحتري بالتقوى، فلا نستطيع كذلك أن نصفه بالفسوق والزندقة.

وتروي كتب الأدب « أن البحتري كان أبغض الناس إنشادا، يتزاور في مشيه: مرة جانبا ومرة القهقرى، ويهز برأسه مرة وبمنكبيه أخرى، ويشير بكمه ويقف عند كل بيت، ويقول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين فيقول: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ هذا ولله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله »[1]، وما يروى عن البحتري من إتيانه بحركات غريبة أثناء إنشاد شعره إنما كان يحدث منه في قصائد المنادمة « كان البحتري إذا شرب وأنس نشد شعره »[2].

وذكر الرواة أن البحتري كان أسمر طويل اللحية، أقرب إلى القصر والنحول، وكان ذا حركات تنمّ عن طبع بدوي خشن.

[1] محمد خفاجي: الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004م، ص200.
[2] أبي الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص12.

ومن صفاته أنه كان محبّا لوطنه « فإنه كثيرا ما يحث إلى منبج وحلب، ويحسب نفسه غريبا في العراق»[1]، وقولهم أيضا في صفاته أنه كان من أبخل خلق الله مستشهدين ببعض مواقفه، غير أن البعض يرى دفاعا عن البحتري أنه لو كان بخيلا لما فات ذلك على الشاعر الهجاء ابن الرومي والذي درج على تصوير خصومه بإيضاح، فقد هجا البحتري بقوله[2]:

البحتري ذبوب الوجه نعرفه  وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدبٍ

**شعره:**

قضى البحتري طفولته في منبج وتلقى فيها ثقافته وظهرت مواهبه الشعرية وهو مازال فتى يافعا فتدفق الشعر على لسانه وكان « يقال لشعره سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم، المتنبي وأبو تمام والبحتري، قيل لأبي العلاء المعري أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري»[3].

وحكي أبو بكر الصولي في كتابه الذي وضعه في « أخبار أبي تمام الطائي » أنّ البحتري قال: « كان أول أمري في الشعر ونباهتي فيه أني صرت إلى أبي تمام وهو بحمص، فعرضت عليه شعري، وكان يجلس فلا يبقي شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره، فلما سمع شعري أقبل علي وترك سائر الناس، فلما تفرقوا قال لي: أنت أشعر من أنشدني، فكيف ذلك؟ فشكوت خلّة، فكتب إلى أهل معرّة النّعمان، وشهد لي بالحذق وشفع لي إليهم وقال لي: امتدحهم فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته بالشعر »[4]،

[1] عبد عون الروضات: موسوعة شعراء العصر العباسي الأول، ، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط3، 2008م، ج1،ص ص 80- 81.
[2] ابن الرومي: الديوان، سرح مجيد الطراد، دار الجيل بيروت، ط1، 1998م، ص391.
[3] محمد موسى الوحش: موسوعة أعلام الشعر العربي، دار دجلة، ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، د ط، 2008م، ص120.
[4] يحي الصولي: أخبار البحتري، ص56.

وقيل للبحتري: أيما أشعر أنت أم أبو تمام؟ فقال: جيده خير من جيّدي ورديئي خير من رديئه، فنشأته البدوية هي التي جعلته لا يأنس بالأدلّة العقلية والتّفكير المنطقي، « ولا يرى خير في الشعر إلا إذا انطلق من هذه الأغلال محمولا على أجنحة الخيال الحر الفسيح، فجاءت حكمه على قلتها ساذجة مشتركة التّفكير، تدور معانيها على ألسنة الناس وأكثرها في شكوى الزمان »[1].

كما نجد الوصف عند البحتري الذي رفع من منزلته وأحله في الطبقة الأولى، فقد أوتي من قوة المخيلة وروعة التّصور ما جعله يتناول الأشياء المادية فيرسمها بشعره لمحا، فيخرج لها صورا دقيقة بارعة الفن، وقد يرتفع عن المرئيات فيمعن في سماء الخيال، ثم يعود بمختلف التصاوير، ملؤها حركة وحياة.

وقد أورد عن البحتري أنه كان في أولى نشأته « يمدح أصحاب البصل والباذنجان، قال صالح الأصبغ التنوخي المنبجي: رأيت البحتري ها هنا عندما أقبل أن يخرج إلى العراق، يجتاز بنا في الجامعة من هذا الباب، وأومأ إلى جنبتي المسجد، يمدح أصحاب البصل والباذنجان، وينشد الشعر في ذهابه وحجيئه، ثم كان منه ما كان »[2].

**رحلته إلى حلب:**

أخذ البحتري يتردّد على حلب، و« اشتهر بأنه أحبّ في مطالع حياته امرأة تسمى علوة من قرية بجوار حلب تسمى بطياس، وله فيها غزل كثير إذ كان دائم الصبابة بها، وظلت لا تغيب عن ذاكرته مددا متطاولة »[3].

وفي وصفه يقف البحتري على التغزّل بعلوة أو مناجاتها، لأنه أنعم معها في حلب بأيام سعيدة هانئة فيقول[4]:

---

[1] بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العباسية، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، د ط، 2011م، ص180.
(http://www.kalimat.org)

[2] ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج 6، ص202.

[3] شوقي شيف: الفتى ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11، 1943م، ص191.

[4] البحتري: الديوان، مج1، ص421.

هل دين "علوة" يستطاع فيقتضى أم ظلم علوة يستفيق فيقصر

بيضاء يعصيك القضيب قوامها، ويريك عينيها الغزال الأحور

تمشي فنحكم في القلوب بدلها وتميس في ظل الشباب فتخطر

يكثر الشاعر الحنين إلى علوة، فلا ينسي تلك الأيام التي قضاها بالقرب منها حتى وهو بعيد في ارض العراق يقول[1]:

قل للسحاب إذا حدثه الشمأل وسرى بليل ركبه المتحمل

عرج على "حلب" فحي محلة مأنوسة فيها لعلوة منزل

كما نرى فن غزل البحتري ذكر « الطيف والخيال حتى عرف به بين الشعراء فقيل خيال البحتري »[2].وقد اشتهر في هذا كثيرا، وفي مقطوعة غزلية أخرى يقرّ بأنه مسيء ويطلب العفو والصّفح من محبوبته قبل أن يموت، ويشتكي من الحب وما يصيره إليه ويستعمل من عبارات شعراء الغزل العذري من نحو: التوبة من كل ذنب، والإساءة والعفو، كقوله[3]:

أتيتك تائبا من كل ذنب أبادر منيتي وحلول رمسي

أسأت فانعمي وتداركيني بعفو منك قبل خروج نفسي

[1] البحتري: الديوان: المصدر السابق: ص1599.

* الشمال: ريح الجنوب

المتحمل: المرتحل

[2] سمية محمدي: وميظات طيف الخيال في شعر البحتري، رسالة ماجستير في اللغة العربية، إشراف فرهاد ديوسالار، جامعة الآزاد الإسلامية في كرج، 2011م، ص..

[3] البحتري: الديوان، مج3، ص1178.

مضى أمسي وقد حملت جهدا وأصبحت الغذاة بحال أمس

**صلته بأبي تمام:**

يقال أن البحتري التقى بأبي تمام في حمص وعرض عليه أشعاره، وهناك رواية أخرى تذكر أن البحتري أنشد شعرا في معنى قد قال أبو تمام في مثله: « أنت في هذا أشعر من أبي تمام !»، فقال: كلا ولله ذاك الأستاذ الرئيس، والله ما أكلت الخبز إلا به؟ فقال له المبرد: [ لله درك يا أبا الحسن، فإنك ] تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك »[1].

وقال البحتري: أول ما رأيت أبا تمام دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف، وقد امتدحته بقصيدة التي أولها[2]:

أأفاق صب من هوى فأفيقا أم خان عهدا أم أطاع شفيقا؟

إن السلوّ –كما تقول –لراحة لو راح قلبي للسلو مطيقا

وعندما انتهى البحتري من إنشاد قصيدته في حضرة الممدوح استحسنها وقال له: « أحسنت يا فتى ! فقال رجل في المجلس: هذا شعر علقه لي هذا فسبقني به إليك، ثم أنشد منها أبياتا، فقال لي محمد: يا فتى قد كان في قرابتك منا وودّك لنا ما يغني عن هذا. فجعلت أحلف أن الشّعر لي إلاّ أن استحيا الرجل فقال: الشعر له، فقال محمد بن يوسف هذا أبو تمام وضحك، ثم قام أبو تمام إلى البحتري وعانقه وكانت تلك بداية صلة البحتري بأبي تمام »[3]، وروي من كثير من العلماء كأبي العباس المبرد « وظلّ صنيعه لأبي تمام يردّد صداه، ويترسّم

[1] يحي الصولي: أخبار البحتري، ص57.
[2] البحتري: الديوان، مج3، ص1450.
[3] .يحي الصولي: أخبار البحتري، ص64.

خطاه، وحبيبٌ يرشده ويعضُه لأنه طائي مثله، حتى قال له يوما: « أنت ولله يا بني أمير الشعراء غذا بعدي » فصدق الله بنبوءته، وأصبح البحتري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذّكر إماما في الأدب والقريض، وأقام بالعراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان وزيره »[1].

**وصية أبي تمام للبحتري:**

لقد توطدت العلاقة بين البحتري وأبو تمام، وقويت المحبة بينهما وذلك لما وجد فيه من شاعرية وشجاعته يقول شوقي ضيف كما أوصاه وصية حيث يقول[2]: « وقال الوليد بن عبيد البحتري: كنت في حداثتي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتّكلت في تعريفه عليه؛ فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة؛ تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الهموم، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السّحر؛ وذلك أن النفس قد أخذت حظّها من الراحة؛ وقسطها من النوم، وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا، والمعنى رقيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أباد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وابن معالمه، وشرف مقامه، ونضّد المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط بقطع الثياب على مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلاّ وأنت فارغ القلب، واجعل شهرتك لقول الشعر الذّريعة إلى حسن نظمه؛ فإن الشّهرة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إنشاء الله.

[1] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار النهضة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص295.

[2] الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب مج، تفصيل وشرح، زكي مبارك، دار الجميل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 4، د ت، مج1، ص ص 152، 153.

قال: فأعلمت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة ».

**مؤلفاته وآثاره:**

**1- الديوان:**

له ديوان شعر « وقد طبع ثلاث طبعات »[1]، أضيفت لها طبعات أخرى ليكون كالآتي:

* طبعة الأستانة.

* طبعة بيروت 1911م، تعليق رشيد عطية.

* طبعة مصر، 1911م، ضبط وتصحيح عبد الرحمان البرقوقي.

- طبعة دار صادر بيروت، 1962م.

- طبعة دار المعارف، بمصر 1963م، تحقيق حسن كامل الصيرفي.

وقد جمع ديوان البحتري أبو بكر الصولي، ورتّبه على الحروف، وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الأنواع.

**2- الحماسة**

طبعت حماسة البحتري، أربع طبعات[2]:طبع على مثال حماسة أبي تمام[3].

[1] البحتري: الديوان، مج1، ص3.

[2] الحماسة: البحتري، تحقيق، محمد إبراهيم حور، المجمع الثقافي أبو ظبي، د ط، 2007م، ص8.

[3] كامل الجبوري: معجم الشعراء في معجم البلدان: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، د ط، 2002، ص92.

الأولى: طبعة بيروت عام 1910 بعناية الأب لويس شيخو.

الثانية: طبعة بالقاهرة عام 1929م، بعناية كمال مصطفى.

الثالثة: طبعت بيروت عام 1999م، إخراج رضوان ديوب.

الرابعة: طبعة عام 2002م، عن دار صادر تحقيق محمد نبيل طريفي.

طبعة أخرى: تحقيق محمد إبراهيم حور محمد إبراهيم حور، أحمد محمد عبيد، نشره، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2007م.

**3- معاني الشعر:**

وهو كتاب لم يصل إلينا.

**وفاته:**

يرى بعض الرواة أن وفاة البحتري كانت في سنة 286هـ، والبعض يرى أنه توفي سنة 284هـ وهذا الأخير هو الأصح وكانت وفاته بمسقط رأسه منبج، ودفن بها وهو يناهز الثمانين عاما.

**ثانيا: السيرة الذاتية لابن خفاجة**

**مولده:**

هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي، شاعر غزل، من الكتاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة.

ولد أبو إسحاق «بجزيرة شُقر من أعمال بلنسية من بلاد الأندلس في خمسين وأربعمائة، 450هـ الموافق 1058م »[1].

« وشقر- بضم الشين المثلثة وسكون القاف والراء المهملة- وهي بليدة بين شاطبة وبلنسية، وإنما قيل لها جزيرة لأن الماء محيط بها.

وبَلنسية بفتح الباء الموحدة وفتح اللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها »[2]، وقال ابن بسام في كتاب الذخيرة: « كان مقيما بشرق الأندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع تهافتهم على الأدب »[3].

**حياته:**

عكف على الله وتعاطي الشعر والنثر فبرع فيهما حتى أعجب به مواطنوه وعدوه واحد عصره وأقلع عن كهولته عن صبوته وعكف على وصف الطبيعة، وقد مر الشاعر بمرحلتين في حياته:

أولاهما: مرحلة الترف والشباب والإغراق في الملذات.

والأخرى: مرحلة النضج وتوجس الحياة والخوف من الموت خوفا مرضيا.

**صفاته:**

كان نزيه النفس لا يكتسب بالشعر ولا يمتدح وكان يعد أديب الأندلس وشعرها، بدليل ما وصف به « وكان رقيق الشعر أنيق الألفاظ غير أن ولوعه بالصنعة وتعمده الاستعارات والكنايات والتورية والجناس وغيرها من

[1] عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، 2000م، ص115.
[2] ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج1، ص56.
[3] بسام الشنتريني: الدخيرة في محاسن أصل الجزيرة، ، تحقيق إحسان، عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط2، 1997م، مج1،ص541.

المحسنات المعنوية واللفظية، جعل بعض شعره متكلفا وأوقع بعضه في الغموض »[1] فهو لا يحب إلا الجمال، ولا يميز من الأشياء التي يراها إلا ما يتفق مع صفاته النفسية، فكنا فرحا مسرورا لا تكاد تجده يصف منظرا محزنا أو شيئا قبيحا، فشعره صورة لحياته النفسية المملوءة بالسرور والإعجاب بالجمال، وكانت نفسه مطمئنة هادئة كما وصف: بأنه: « الناظم المطبوع الذي شهد بتقديمه الجميع المتصرف بين حكمه وتحكمه البديع تصرف في فنون الإبداع كيف شاء وأتبع دلوه الرشاد فشعشع القول وروقه ومد في ميدان الإعجاز طلقه فجاء نظامه أرق من النفس العليل وآنق من الروض... »[2].

**شعره:**

كتب ابن خفاجة الشعر في مختلف أغراضه المعروفة وإن كانت أوصاف الطبيعة هي الغالبة على ديوانه، وكان المدح أقل هذه الأغراض في شعره كما كان الرثاء ورؤية الموت لهما وقع خاص في نفسه، ولكنه تفرد بوصف الطبيعة وكان أسبق الناس فيها حتى لقبه أهل الأندلس "بالجنان".

فقد رافقته الطبيعة في جميع أغراض شعره، فهو يتحدث إليها كما يتحدث إلى شخص ذي حياة وحركة.

ولكن لا ريب في أن الطبيعة الشعرية كانت ذات أثر في نوعية الحياة السياسية في البلاد الأندلسية، وبخاصة في عصر ملوك الطوائف « وقد إلتبست سياسة ذلك العصر بشيء كثير من العواطف والمنازعات الفردية والكيد الذي تثيره المنافسات من أجل المجد (السياسي- الأدبي) »[3].

[1] محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، ، تحقيق، إحسان عباس، مج1، دار صادر بيروت، لبنان، د ط، 1968م، مج1 ص778.

[2] بسام الشنتيريني الذخيرة من محاسن أهل الجزيرة، مج3، 514.

[3] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1997م، ص65.

ومهما يكن أصبح المنظر الطبيعي كالقاعدة المساعدة في بناء القصيدة الأندلسية، كانت مهمة ابن خفاجة تكثيف تلك المظاهر « فوضف لطلب الصورة، واتخاذ للطبيعة قاعدة الغزل والذكرى، وإحلال الاستعارة المستمدة من الطبيعة محل غيرها من استعارات، ووقوف عند المنظر الطبيعي لرسمه كله جزءا جزءا بغية الرسم »[1].

**مؤلفاته:**

1- جمع ابن خفاجة ديوانه بنفسه في حياته وكتب خطبته التي أبان فيها منهجه في جمع الديوان وطرفا من آرائه النقدية، وقد قدم لبعض القصائد بمقدمات نثرية تشف عن أسلوبه النثري الرصين، يقول في الخطبة الموجودة في مقدمة ديوانه: « فعطفت هنالك على نظم القوافي عناني، وسننتها عند ذلك حللا على معاطف سلطاني مصطنعا، لا منتجعا، ومستميلا لا مستنبلا، اكتفاء بما في يدي من عطايا منان، وعوارف جواد وهاب، خلق فأبدع، ورزق فتبرع، ثم اتبع الطول طولا، فوهب سائله، وتقبل وسائله »[2].

رتب شعره على حروف المعجم، له عدة طبعات « إن نسخ الديوان المحفوظة بالأسكوريال ولندن وباريس إنما تمثل الصورة الأولى فحسب وكلها غير مرتب، كذلك الشأن من نسخة الثلاث التي اعتمدت عليها طبعة القاهرة، اثنان بالأستانة وواحدة بالمدينة »[3].

وهده القطعة النثرية تعمد فيها أسلوب إبن العميد والهمداني من حيث المحسنات اللفظية.

**وفاته:**

توفي سنة 533هـ/1137م، وقد بلغ من العمر 82 سنة أو تزيد وقد أدركه الهرم وأنهكته الأيام.

[1] إحسان عباس: المرجع السابق: ص ص 169، 163.
[2] إبراهيم ابن أبي الفتح ابن خفاجة: الديوان ،ص8.
[3] المصدر نفسه: ص1.

## ملخـــــص

كان الشّاعر العربي القديم معروف بأنّه شاعر الطّبيعة يلجأ إليها ويتّخذها إلهاما له، يأوي إليها متأمّلا ظواهر الحياة والكون، ويستمدّ منها وحي الشعر.

ونظر لاختلاف البيئات والثّقافات فيما بعد تطوّرت نظرة الشّاعر العربي إلى الطبيعة أو البيئة التي يعيش فيها، وذلك للجمال الآسر للطبيعة وكثرة أزهارها وأشجارها و أنداء أفيائها الوارفة، فتغنّى الشّعراء، برياحينها وألهمهم بهاؤها.

وقد أضحى وصف الطبيعة بارز في معالمهم الشعرية، وهذا ما ينطبق على شاعرين بحجم "**البحتري وابن خفاجة**" اللذان كانا محل وقفة قرائية في هذه الدراسة الموسومة ب " وصف الطبيعة بين البحتري وابن خفاجة"، أين سلطنا الضوء على وصف الطبيعة وتجلياتها في نصوصها الشعرية، واقفين عند إشكالية رئيسية: هل وصف الطبيعة حافز على الإبداع عند كل من البحتري وابن خفاجة؟

وقد ضمّنت هذه الدراسة مدخلا؛ أبرزنا فيه وصف الطبيعة بين المفهوم والمصطلح وكذا تطوّر وصف الطّبيعة في الأدب العربي القديم.

كما تناولت هذه الدراسة فصلين؛ فصل نظري هدفنا من خلاله إلى إظهار بواعث شعر الطبيعة، وتجلياتها في قصائد الشاعرين، في حين جاء الفصل الثاني تطبيقيا، سعينا من خلاله إلى تقديم مقارنة لوصف الطبيعة في شعر "**البحتري وابن الخفاجة**" من خلال جملة من قصائدها.

لنصل إلى أن وصف الطبيعة قد اثر على نظرتها الأدبية وساهم في تطوير رؤيتهما الشعرية وطقوسهما الإبداعية، وبالتالي عانق وصف الطبيعة عوالم كل من "**البحتري وابن خفاجة**".



**الكلمات المفتاحية:** وصف الطبيعة، البحتري، ابن خفاجة، الشعر العربي القديم.

# فهرس المحتويات

| الفهرس | الصفحة |
|---|---|
| **البسملة** | |
| **شكر وعرفان** | |
| **مقدمة** | أ، ب، ج، د، هـ |
| **مدخل** | 17-6 |
| **الفصل الأول: بواعث وتجليات وصف الطبيعة في شعر البحتري وابن خفاجة** | |
| **المبحث الأول: بواعث وصف الطبيعي عند البحتري** | 19 |
| **أولا**: الباعث الطبيعي | 19 |
| **ثانيا** الباعث النفسي | 20 |
| **المبحث الثاني: تجليات وصف الطبيعة في شعر البحتري** | 20 |
| **أولا**: المظاهر الطبيعية<br>أ- الطبيعة الميتة<br>ب- الطبيعة الحية | 28-21<br><br>35-29 |
| **ثانيا**: المظاهر الحضارية | 42-36 |
| **المبحث الثالث: بواعث وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة** | 43 |
| **أولا**: الباعث الطبيعي | 45-43 |
| **ثاني**ا: الباعث النفسي | 46-45 |
| **المبحث الرابع: تجليات وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة** | 47 |
| **أولا**: المظاهر الطبيعية<br>أ- الطبيعة الميتة<br>ب- طبيعة الحية | 62-47<br><br>68-62 |
| **ثانيا**: المظاهر الحضارية | 69-68 |
| **الفصل الثاني: وصف الطبيعة بين البحتري وابن خفاجة** | |
| **أولا**: الصورة الفنية | 85-72 |
| **ثانيا**: الصورة الشعرية | 122-85 |
| **الخاتمة** | 127-124 |
| **ملحق** | 140-129 |

| | |
|---|---|
| قائمة المصادر والمراجع | 147-142 |
| فهرس الموضوعات | 150-149 |